بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 01 نوفمبر 2018

فتاوى الاستئصال
بين «قتال عاد» و«مباهلة الطّوفان»

زينب التّوجاني
باحثة تونسية

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

فتاوى الاستئصال

بين «قتال عاد» و«مباهلة الطّوفان»[1]

1- نشر في كتاب «الجهاد» منشورات مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث سنة 2018، إشراف بسام الجمل، تقديم أنس الطريقي.

ملخّص

فتاوى الاستئصال المعاصرة تبرّر فقهيّاً ممارسة القتل والقتل الجماعيّ لتطهير الأرض من الأعداء وتبيحُها. والاستئصالُ في أصل النصّ القرآنيّ عقاب الله للأقوام «الفاسدة»، وله أداتان: استئصال بالقوارع واستئصال بالسّيف. وهما مفهومان ثوابيّان/ عقابيّان إلهيّان وثيقا الصّلة بأنطولوجيا الجهاد، بما هو حدّ من حدود الله التي أسّست شرعيّة القتل منذ تدوين «المصحف» وعلومه، وظلّت تعود بشكل دوريّ، فأصّلها الشافعيّ، وأفتى بها ابن تيميّة، وأحيتها الوهابيّة، ونظّر لها الإخوانُ، وأفتت بها الحركات الجهاديّة الإسلاميّة المعاصرة. وقد اتّحد النّوعان وامتزجا وصارا استئصالاً واحداً، يُطلق عليه شيوخ السّلفيّة المعاصرون أسماء القوارع. فهو عند شقٍّ منهم «عقاب عاد»، وعند أعدائهم «مباهلة الطّوفان». وعوّضت فيه تكنولوجيا الحرب الحديثة السّيوف القديمة، والقوارع الربّانية. واستندوا خاصّة إلى ابن تيميّة وإلى الحديث النّبوي لتبرير فتاواهم أو لدحض شرعيّتها على السّواء.

ونفترض أنَّ لشرعيّة هذا «الجهاد» بنية ميثيّة كامنة في البنى المنطقيّة للذّهن البشريّ. وأنَّ السّنَّة الثقافيّة الإسلاميّة قامت منذ نشأتها من خلال نصوصها المدوّنة المؤسّسة لها على هذه البنية المنطقيّة/ الميثيّة التي تعود بشكل دوري مع كلّ دورة من دورات التّاريخ. وهذا البحث محاولة للكشف عن عناصر هذه البنية المنطقيّة/ الميثيّة ووظائفها.

قبلَ المقدّمة: جريمةُ سفكِ الدّم

بعد إضرام الشّاب التّونسي البوعزيزي النّار[1] في نفسه احتجاجاً على إهانته في سبيل لقمة العيش، واضطرام الثّورات العربيّة، اتّقدت في العالم العربيّ حرائقُ لبست لبوساً دينيّاً وطائفيّاً، ليس آخرها حرقُ الطيّار الأردني الكساسبة بتهمة الردّة من طرف تنظيم الدّولة الذي بدأ، في هذه اللّحظة التي يُكتبُ فيها هذا النصّ، ينحسر ويخسر كلّ مواقعه ويتآكلُ ويحترق بالنّار نفسها التي أنشبها من داخله[2]. لكنَّه، وفي اللّحظة التي فيها يحترق، يمكن أن يُبعث من رماده تنظيم أشدّ وحشة وقتامة[3]. فالأشخاص يموتون والتّنظيم يتفكّك لكنَّ الفكرة وآليّاتها باقية لا يمكنُ أن يفكّكها سوى القلم وما يسطرُ[4]. ومن قتلِ النفس للنّفس إلى قتلِ الأخ لأخيه من الدين نفسه والطّائفة نفسها إلى قتل الإنسانِ لإنسان آخرَ من غير لغته ودينه أو ملّته، ما نحنُ إلّا أمام

1- إنّ النار التي انتقلت من شخص المنتحر إلى الطيّار الأردني الكساسبة إلى النّيران التي أحرقت الدّواعش في الموصل وسرت والرقة بالقصف وبالتّفجير لها في الأصل الكامن في الثقافة والنفس دلالات ثقافيّة ورمزيّات نفسيّة تجعلها ذات طاقات سحريّة فعّالة في تاريخنا المحايث تحرّك الطاقة اللاشعوريّة لنا، فهي تحمل معها قداسة عجيبة وغموضاً يجمع بين التّناقضات. يقول بشلار في فرادة رمزية النّار: "هي الوحيدة من بين جميع الظاهرات التي يمكنها أن تتقبّل كلتا القيمتين المتضادتين: الخير والشرّ. تتألق في الفردوس وتستعر في السّعير عذوبة وعذاب، مختبر بداية ورؤيا نهاية"، بشلار، النّار في التحليل النفسي، تعريب نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، 1984، ص11. ويلحّ الفيلسوف على أنّ النار هي كبرى المحظورات، فاحتراق البوعزيزي بالنّار يعني رمزيّاً كسر الحظر، أي تلك النّار التي لا يجب لمسها والاقتراب منها تفقد احترام المحظور عليه فيلمسها فيكون في تخطي الحظر هلاكه. وتشتعل النيران في كلّ الجسد العربي. إنّ حرق النّفس ليس فقط مجرّد يأس عرضيّ، بل هو فشل لكلّ الأنظمة الرمزيّة التي تداعت وصار ملحّاً على المجتمع إعادة بنائها: فالاحتراقُ العلني هو إعلانُ نهاية نظام الحظر. وهكذا يسقط الخوف وتسقط السلطة الكامنة في أصل النفس الخائفة. إنّ هذا التحليل يعتمد على قراءة بشلار لرمزية النار ولكونها أوّل متعلّقات الحظر التي بنت بنياناً نفسيّاً واجتماعيّاً، عندئذ نفهم ما سينجرّ عن تجاوز الحظر من عدوى: فلم يعد الخوفُ من الموت قائماً، وهو خوف ضروري لحماية الذات من الانجراف لغواية الموت. انظر المصدر المذكور في أوّل هذا الهامش للمزيد من التعمّق في رمزيّات النّار وعلاقتها بالحظر والبنى النفسيّة.

2- خسر تنظيم الدّولة داعش إلى حدود يوم 25/ 10/2017، مواقع مهمّة مثل سرت الليبية في ديسمبر 2016، والرّمادي في العراق في فيفري 2016، والموصل في جويلة 2017، كما أنّ معاقله الأخيرة في الرقة في شمال سورية وغيرها على وشك السّقوط وتعرض الشّاشات يوميّاً أخبار المعارك الأخيرة التي تهدف إلى استئصال هذا التنظيم.

3- تفكّك تنظيم الدّولة بعد الضّربات التي تلقاها من التّحالف الدوليّ ومن النّظام السّوري ومن الفصائل السلفيّة التي قاومته وحاربته. وبرزت داخله انقسامات داخليّة عميقة تتّصل بمنهج التكفير والاستئصال، وقد بثّت مؤسّسة الفرقان التّابعة للتّنظيم فيديو نسب لزعيمه البغدادي، الذي لا يُعرف إن كان حياً أو ميتاً، يوم 28 سبتمبر 2017 عنوانه "وكفى بربّك هادياً ونصيراً"، وقد قيلَ في هذا الفيديو على لسان هذا الزعيم المفترض: "يا جنود الخلافة أوقدوا لهيب الحرب على عدوكم وتمنطقوا الحزم وشدوا العزائم، ويا جنود الدولة في الشام اصبروا على عدوكم فجموع النصيرية إلى زوال، وكثفوا الضربات ضد دول الكفر، واستهدفوا المنابر الإعلاميّة». فانظر إلى توظيف هذه الاستعارة بإيقاد النّار التي تنتقل من طرف إلى آخر بشكل معدٍ. وجاء هذا الفيديو في سياق الهزيمة التي لحقت بهذا التّنظيم الذي أرعب السّنوات الماضية العالم وبثّ الذّعر في القلوب وساهم في تفكيك المنطقة. وأكدت الكلمة المنسوبة للخليفة الذي انهزم على سرديّة سنحاول في هذا البحث استخراج عناصرها الكبرى ووظائفها، وهي سرديّة نسميّها «الميثاق الإلهي»، ونلاحظ أنّه حتى بعد هزيمة التّنظيم عاد هذا الصوتُ ينشر السرديّة نفسها مذكرا بالميثاق الإلهي نفسه متوعّداً وواعداً ومعيداً في تكرار لا يكلّ ولا يملّ عناصر ميثيّة هي سببُ انتشار العقائد الجهاديّة التي تبقى حتى بعد سقوط التّنظيمات التي تدافع عنها وتتبناها، وهي عقائد باقية وعائدة بشكل دوري حتى بعد موت زعمائها وقادتها. وهو الأمر الذي به نفسّر الحاجة الملحّة إلى تفكيك الخطاب والأفكار الدينيّة للمساهمة في الخروج من هذه الحلقة المفرغة من العنف الدائر بشكل دوريّ. انظر الكلمة في صيغة مكتوبة ونحن ندرك الشكّ في نسبتها إلى البغدادي وكذلك ندرك التّشكيك في حياته، ولكنّ الذي يهمّنا هو هذه الاستراتيجية في الخطاب الديني/ السياسي/ الجهادي الذي كلما كادت تنطفئ نار أعاد إيقادها بالسرديّة الميثيّة نفسها، انظر الموقع: https://dawaalhaq.com/post/77153 عوين يوم 2017/10/25.

4- أصدر البغدادي بعد هزائمه المتكرّرة أوامر صارمة تقضي باستئصال من اعتبرهم "الغلاة الحازميّين" بسجنهم وطردهم أو قتلهم إن لم "يتوبوا"، ممّا يعتبره "معتقد الخوارج"، وهؤلاء الحازميّون هم عناصر من داخل التّنظيم نفسه انشقّت عن طاعة قائدها في مستوى العقائد المرتبطة بالتّكفير، وخلقت من داخل التّنظيم ثغرات أضعفته وجعلته ممزّقاً في مواجهة تحديّات المعارك الخارجيّة والصّراعات الداخليّة ممّا أسهم في هزائمه. وقد حمّل البغدادي هؤلاء في خطبه التي بثّتها مؤسسة الفرقان، الجناح الإعلامي لداعش، المسؤوليّة في تمزيق جهود الدّولة الإسلاميّة. واعتبر ذلك ابتلاء إلهيّاً وأنّ الله ناصر الخليفة والدّولة ولو كره الكارهون. فهي دائرة مغلقة تبرّر النّصر وتبرّر الهزيمة وتجعل المجاهدين لا يرون الواقع وكلّ ما يرونه هو سرديّة "الميثاق الإلهي" المطلق.

مشهد واحد متكرّر لـ«سفك الدمّ»[5]، وسفك الدمّ إلى جانب «تحريم المحارم» هما أساس المحرّمات الدينيّة الأساسيّة[6]، أي هما أساسُ النّظام الدينيّ نفسه.

فكيف أمكنَ اختراق هذا الحظر باسم هذا الدّين ذاته الذي يقومُ على هذا الحظر[7]؟

يتعلّق جوهر هذا المقال إذن بالتأمّل في بنيان النّظام الديني باعتباره نظاماً ينتجه العقل بآليّات مخصوصة نحاول تحليل بعض وجوه اشتغالها وعجزها الواضح عن الحيلولة دون ارتكاب الإنسان جريمة القتل في حقّ غيره وحقّ نفسه.

المقدّمة: نعيمُ الخلافة أم سعيرُ العدميّة؟

لقد تسابقت في السّنوات السّبع الماضية قوى العالم المعاصر لقول الكلمة الأخيرة لما كان يُعتقد أنَّه نهاية التّاريخ[8]. ولذلك سمّى «تنظيم الدّولة الإسلاميّة» مجلّته الشّهيرة باسم بلدة يُعتقد أنَّها ستشهد معركة نهاية الزّمان[9]، في حين علت أصوات كتّاب غربيّين يردّدون بلا توقّف أنَّها «نهاية التّاريخ» و«الإنسان»[10].

5- هي عبارة قرآنيّة وقد نهت الآيات عن قتل النّفس وقتل الآخرين، وكان ذلك سبباً لنقض العهد بين الله الإسلاميّ والشّعب اليهوديّ الذي تخبر الآيات القرآنيّة أنّه اخترق النّهي، واقترف جريمة سفك الدمّ المحرّم: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ" البقرة/ 86-84.

6- يراجع في هذا ما كتبه فرويد خاصّة في الطوطم والطابو:

Totem et tabou, Interprétation par la psychanalyse de la vie sociale des peuples primitifs, Payot, 1932.

7- قتل المسلم أخيه محظور في أصل المؤسّسة الفقهية بكلّ فروعها، ويسمّي ابن تيميّة القتال بين المسلمين "مقاتلة محرّمة"، ويروي في ذلك ما يثبتُ التحريم من قرآن وحديث نبويّ عن أنّ القاتل والمقتول في النّار، ويعتبر أنّ المنهزم في القتال إذا انهزم بنيّة التوبة فإنّه ينجو من عذاب الله، ويفسّر البغي بكثرة الذنوب ويفضل الإمساك والصبر والاستغفار للنجاة من العذاب الإلهي الدنيوي، فقتل الأخ محظور في أصل الدين قرآناً وآداباً وفقهاً، وهو محظور في أصل كلّ الأديان والمجتمعات. انظر مجموع الفتاوى، مج35، ص52. وانظر حديثه في إنكار الفتنة وقتل الإخوة في الجزء نفسه ص80.

8- لا تجد الحركات الجهاديّة العنيفة حرجاً في القتل وفي الدّعوة إلى التوحّش والخراب، لأنّها تنطلق من معتقدات ترتبط بعلامات السّاعة؛ ومنها أنّه إذا دنت السّاعة كثر القتل والهرج وفي ذلك أحاديث تروى، انظر مثلاً علامات انتهاء الأرض كما سردها الثعلبي أبو إسحاق النيسابوري في قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، 1989، ص10.

9- أصدرت داعش في جويلية 2014 بهذه المناسبة مجلّتها دابق النّاطقة باسم هذه الخلافة التي انتصرت في رأيهم، والتي تذكرهم بمعركة "مرج دابق"، التي قادها السلطان العثماني سليم الأول ضد المماليك قرب حلب، ومهّدت لامتداد سيطرة العثمانيين في بلاد الشام ومصر. وتحمل المجلّة اسم هذه البلدة السوريّة التي يُعتقد أنّها ستشهد آخر معركة بين الصّليبيين والمسلمين يسمّونها استناداً إلى حديث ورد في صحيح مسلم بمعركة آخر الزّمان، ويعتقدون أنّ الانتصار فيها سيكون حليف المسلمين، وقد عنونوا عددها الأوّل بـ"عودة الخلافة"، وخصّصوه للحديث عن انتصارهم التّاريخي وإعلان قيام الخلافة المنشودة. للمزيد من التّفاصيل يمكن الرّجوع إلى أرشيف هذه المجلّة، وخاصّة إلى عددها الأوّل. انظر:

https://archive.org/stream/dbq_7/DABIQ7#page/n1/mode/1up

وقصّة دابق مذكورة في صحيح مسلم في باب الفتن وعلامات الساعة، انظر: مسلم بن الحجاج النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1954 ج4، ص 2897.

10- للتّعمق في هذا السّباق وخلفيّاته وأهمّ ردود فعل المفكرين العرب المعاصرين عليه، يمكن العودةُ إلى أطروحة مودعة في كليّة الآداب بمنوبة: مراد الحاجيّ، مواقف المفكرين العرب من أطروحتي نهاية التاريخ وحوار الحضارات، نوقشت بتاريخ ماي 2017.

وتسابقت إلى مسرح العالم مشاعر الغضب والانتقام والعداوة مفجّرة بذلك جحيم الاقتتال والعنف الدّامي. وتنافس الغرب والشّرق تنافساً عجيباً: فعلى أرض العراق والشّام وليبيا وغيرها من أراضي العالم العربيّ المتفكّك بالحروب والثّورات تقاتل أصحاب المصالح متخفيّن برداء أخلاقيّ يحجبُ مصالحهم وانفعالاتهم البدائيّة وقواهم العدوانيّة.

أعلن التّحالف الغربيّ أنَّ هدفه الأسمى «محاربة الإرهاب» فتتحقّق جنّة «الديمقراطيّة»، وأمَّا الهدف الأسمى المعلن لكلّ الحركات الإسلاميّة سياسيّة كانت أم عسكريّة فإعادةُ «أمجاد الخلافة» التي صارت عندهم بمنزلة الجنّة المفقودة. وبين حرب وحرب وكرّ وفرّ تمكّن تنظيم الدّولة من أن يحقّق جزءاً من أهدافه المعلنة، فسيطر على قسم من أراضي العالم واعتبرها طاهرة مطهّرة من الكفر، في حين ازداد إصرار القوى «الديمقراطيّة» على مطاردة هذا «الإرهاب» واستئصاله.

وقد أعلن «تنظيم الدّولة الإسلاميّة» في جانفي 2014 الخلافة الإسلاميّة في سورية والعراق، ونصَّب البغدادي خليفة للمسلمين بعد أن فرض سيطرته على مناطق واسعة من سورية أبرزها محافظة الرقّة وأجزاء من دير الزّور والحسكة وحلب وحمص وريف دمشق[11]. ولكنّ تلك الخلافة الموعودة لم تحقّق لأهل العراق وسورية آمال الجنّة والخلاص، بل جلبت للمنطقة مزيداً من الآلام والعذاب أو ما يُسمّى في الأدبيّات الجهاديّة نفسها بـ«التوحّش»[12].

ففي الشّهر نفسه خاض التّنظيم حرباً ضدّ المدنيّين من الأهالي وضدّ تنظيم القاعدة الممثّل بجبهة النّصرة، والتي أعلن التّنظيم انضمامها إليه منذ دخوله الأراضي السّورية. ولكن أمام رفض تنظيم القاعدة الذّوبان في تنظيم الدّولة اندلعت مواجهات عنيفة برّر فيها كلّ طرف موقفه لأتباعه تبريراً دينيّاً. فأمَّا التّنظيم،

11- أصدرت داعش عند تمكنها في العراق كتاباً أعلنت فيه عن ولادة الدولة الإسلامية: إعلام الأنام بميلاد دولة الإسلام، مؤسّسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، أشرف على إعداده عثمان بن عبد الرحمن التميمي. وما إن تمكنت في سورية، حتى أصدرت مجلتها دابق الصّادرة بالإنكليزية والمعتمدة على أحدث التقنيات، والتي أعلنوا فيها عودة الخلافة في عددها الأوّل.

12- تعتبر الأدبيات الجهاديّة التوحّش مرحلة انتقاليّة بين مرحلتين: فهي مرحلة عبور ممّا بعد سقوط الخلافة إلى الدّولة الإسلاميّة، ويعتبرون التوحّش مهما كانت فظاعته أهون من الاستقرار في أنظمة علمانيّة كافرة، بل إنّهم يرون أنّه لا بأس أن تهلك الأمّة الإسلامية جميعاً وأن تبيد عن آخرها في سبيل قيام الدولة الإسلامية، لأنّها ستكون حينئذ كمثل أصحاب الأخدود وسيكونون شهداء. ولذلك يدعون إلى حرب إبادة وقتال لا يبقي ولا يذر: "علينا جرّ الجميع إلى المعركة ليحيا من يحيا على بيّنة ويهلك من يهلك على بينة، علينا أن نجرّ الجميع الحركات والشعوب والأحزاب إلى المعركة ونقلب الطاولة فوق رؤوس الجميع، وبتكتّل مجموعاتنا، وحسن تنظيم وتنسيق انتشار مجموعاتنا، وتولّي بعضنا لبعض، ونصرة بعضنا لبعض من أقصى الأرض إلى مشرقها، وبتفرّق أعدائنا، وتفرّق مصالحهم وغاياتهم، سنكون نحن القوّة الوحيدة -بإذن الله- التي تستطيع أن تفرض حكم الشّريعة وتأخذ حقّها وحقوق البشريّة التي يتلاعب بها طواغيت الكفر والردّة، فعلينا أن نحرق الأرض تحت أقدام الطّغاة فلا يطيب لهم العيش إلا بالتّوحيد وإنصاف المظلومين أو نهلك دون ذلك". انظر ذلك في: أبو بكر ناجي، إدارة التوحش، أخطر مرحلة ستمرّ بها الأمّة، مركز الدّراسات والبحوث الإسلامية، ص75. وقد انتبه بعض الكتّاب لهذا الموضوع فحاول جمع ما سمّاه "نصوصاً متوحشّة" بعثت من قبرها واعتبرها الوحش الكامن في التّراث "يسرق وجوهنا ويستعدينا ويقتلنا باسم الدين والخلافة الإسلاميّة والمدارس الإسلاميّة والأئمة الإسلاميين". وقد اعتبر أنّه لا بدّ من قتل الوحش بتفكيك نصوصه. انظر تفصيل ذلك في: علي أحمد الديري، نصوص متوحّشة، التكفير من أرثوذكسيّة السّلاجقة إلى سلفية ابن تيمية، مركز أوال للدراسات والتوثيق، ط1، بيروت، 2016.

فقد أفتى بردّة الأهالي وجبهة النّصرة خاصّة. وعلى أساس ذلك قاتلهم قتال ردّة وعاقبهم عقاب النّار[13] وباهلهم مباهلة الطوفان[14]، وأمَّا القاعدة التي تمثّلها جبهة النّصرة، فقد أفتى أبرز علمائها بأنَّ قادة التّنظيم من الخوارج فجاز دفع الصّيال[15] وقتالهم قتال عاد[16]. وبين «قتال الردّة» و«مباهلة الطوفان» و«قتال عاد» لم يكن الفارق كبيراً، وكانت المرجعيّات واحدة وآليّات التّبرير مدمّرة إذ تحوّلت القرى السوريّة إلى مشهد يذكّر بهلاك القرى في القصص القرآني[17].

لقد فغر الجحيم فاه أمام دهشة العالم وعاشت المنطقة أحداثاً دامية ومعارك ومجازر بشعة بين تنظيم الدّولة وتنظيم القاعدة وبقيّة الفصائل الحاملة لتسميات تبدو في ظاهرها دينيّة، وشارك الجيش النّظامي

13- قتال الردّة يستوجب تكفير العدوّ أوّلاً، ثمّ بعد ذلك قتله أو قتاله أو حرقه، وقد أفتى به تنظيم الدّولة داعش ونشر فتاواه منذ العدد الأوّل من مجلّته دابق النّاطقة بالإنكليزيّة إلى آخر عدد، ونشر تلك الفتاوى على موقع اليوتيوب وصفحات التواصل الاجتماعي وعلى المواقع الافتراضية عموماً وكفّر فئات متعدّدة من بينها تنظيمات جهاديّة وقتلوا وذبحوا أسماء معروفة، فقد حكموا مثلاً بردّة الإخوان لتنديدهم بالمذابح التي ارتكبوها في جنوب سورية (انظر دابق، العدد14)، وحتّى شيوخ الصّحوة الإسلاميّة بالمملكة ومفتي المملكة الذين أفتوا بشرعيّة إعدام منظّري الدّولة (فايز الشويل وحمد الحميدي) تمّ تكفيرهم والحكم بردّتهم وإباحة قتلهم (انظر دابق، العدد13)، وبه برّروا حرق الطّيار الأردني واعتبروا أنّهم عاقبوه عقاب النّار أسوة بأبي بكر في عقاب المرتدين، وافتخروا بذلك في العدد الذي يحمل عنواناً دالاً على فتواهم هذه: من النّفاق إلى الردّة (انظر دابق، العدد 7).

14- كلمة العدناني مارس 2014، انظر عملنا أسفله العنصر الخاصّ بالمباهلة.

15- انظر جملة من هذه الفتاوى بدفع الصّائل في موقع: القسم العلمي للدّرر السّاميّة الذي جمع ما سمّاه: فتاوى العلماء والمجاهدين في تنظيم الدّولة ووجوب ردّ صياله عن المسلمين، ونشرها بتاريخ 11 ديسمبر 2015، عوين يوم 5/10/2017.

http://sc.eldorar.com/science/article/13548

وقد حملت أبرز فتوى في قتال الصائل توقيع كبار شيوخ القاعدة جبهة النصرة تحديداً: "أبو قتادة وأبو محمّد المقدسي وسامي العريدي وصادق الهاشمي ومصلح العلياني وأبو سليمان الأسترالي وأبو عزام الجزراوي والمعتصم بالله المدني وعبد الله المحيسني". وانظر فتوى وجوب استئصالهم وقتالهم مفصّلة في: محمّد أبو الهدى اليعقوبي، إنقاذ الأمة، ط1، 2015. وقد بيّن كاتبه في مقدّمته أنّ ما دعاه إلى تأليف الكتاب هو الأسئلة التي كانت توجّه إليه من أطراف الأرض من المسلمين يستفسرون "بيان حكم الله" في التّنظيم. انظر ذلك في مقدّمة الكتاب المذكور، ص6.

16- قتل عاد لا يشترط التكفير بل اتّهام العدوّ بكونه من الخوارج كافٍ لتطبيق عقاب عاد عملاً بفتوى لابن تيمية تقوم هي بدورها على حديث يرفع إلى النبي وظّفه عليّ في قتاله مع الذين خرجوا عن سلطته وحاربوه: فأمّا فتوى ابن تيمية، فهي قوله: "وَأَمَّا الْخَوَارِجُ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ: "أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" وَقَالَ: "لَئِنْ أَدْرَكْتهمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ"، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربيّة السعوديّة، 1995، ج35، ص57. وقد فصّل اليعقوبي كتاباً تحت عنوان إنقاذ الأمّة يبين فيه شروط وداعي فتوى الاستئصال، وقد أقرّ فيه: "وقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام بقتل الخوارج وقتالهم بدون تردد قتالاً يستأصلهم، فقال في حديث أخرجه البخاري ومسلم: "لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد"، محمد أبو الهدى اليعقوبي، إنقاذ الأمّة، فتوى مفصلة في إثبات أنَّ داعش خوارج وأنَّ قتالهم واجب، 2015، ص42. واستشهد في موضع آخر بفتوى لابن عربي يكفر فيها الخوارج ويصفهم بكلاب النار ويجيز قتالهم قتال عاد أو ثمود: "فالصحيح أنهم كفّار...لقوله صلى الله عليه وسلم: "يمرقون من الإسلام"، ولقوله: "لأقتلنّهم قتل عاد"، وفي لفظ "ثمود"، وكلّ منهما إنّما هلك بالكفر، وبقوله "هم شرّ الخلق"، ولا يوصف بذلك إلا الكفّار". انظر المصدر نفسه، ص ص36-37.

17- وفي هذا السّياق المأساوي تمّ توظيف آداب قيام السّاعة والنّهايات لتبرير القتال وجذب المجاهدين إلى صفّ تنظيم الدولة، فسميّت مجلّة داعش باسم دابق، ووظّف في ذلك حديث من صحيح مسلم من باب الفتن في أشراط السّاعة يقول فيه أبو هريرة عن الرّسول أنّه قال: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا، وَاللَّهِ لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ، قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمِ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللَّهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تُرِكَهُ لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ». انظر باب في فتح قسطنطينية وخروج الدجّال ونزول عيسى ابن مريم، صحيح مسلم، ج4، ص2897.

لسورية في المواجهات الدّامية[18]. وكانت براميل المتفجّرات تنزل من هنا وهناك على القرى والتّجمّعات السّكنية فلا يُعرف إن كانت من التّحالف الغربي الذي دخل بحجّة قتال داعش وإرهابها، أم من النّظام السّوري الذي تنقل التقارير الحقوقيّة تورّطه في الجرائم الجماعيّة[19]، أم من داعش أم تنظيم القاعدة ممثّلاً بجبهة النّصرة، أم من إيران وفصائلها المقاتلة على الأرض، أم من تركيا وفصائلها المقاتلة.

لقد كانت تلك البراميل عقاباً جماعيّاً لا يُبقي ولا يذر كطير أبابيل نازلة من السّماء لعنات تصيب جماعات من المدنيّين والمحاربين ولا تفرّق بين النّساء والأطفال والمرضى، فتستهدف كلّ ما يعترضها من المستشفيات والمدارس والأحياء السّكنيّة. لقد كانت الحرب استئصاليّة شاملة، حاول فيها كلّ طرف في الصّراع إبادة الطّرف الثّاني بلا رحمة، وقُتل في هذه المعارك صحفيّون وناشطون حقوقيّون وأطبّاء كانوا يحاولون جعل أرض المعركة أقلّ وحشة وبؤساً؛ إنّها غابة العدميّة تحت مسميّات إسلاميّة من جهة وتحت مُسمّى محاربة الإرهاب من جهة ثانية.

وبدءاً بتسمية الفصائل المتقاتلة وانتهاء بعمليّات الذّبح والحرق والتّرويع غرق الجميع في الخطاب الدّيني قناعاً للمصالح المتصارعة والقوى الدّاعمة لهذه الفصائل بالمال والسّلاح والدّعم اللّوجستي. وينصبّ اهتمامنا في هذا المقال على ما يُسمّى بفتوى قتال عاد/ أو فتوى قتال الاستئصال[20]، وهي لا تبرّر القتل فقط بل تحرّض على القتل الجماعيّ دون تمييز الأفراد ولا الأطفال ولا غير المتورّطين في العداء ولا المرضى ولا النّساء قتلاً لا يبقي من العدوّ شيئاً[21]. وقد أطلقها الجميع (انظر حتّى المعاجم التي يستعملها التّحالف الغربيّ في ما يعتبره حرب استئصال «الإرهابيّين» وملاحقتهم وقتلهم وأسرهم عن بكرة أبيهم)، واستدلّ الجميع عليها بالحجج الشرعيّة نفسها، وخاصّة بالاعتماد على بعض المفسّرين للقرآن وعلى ابن تيميّة، وبرّر

18- يقول بعض الكتّاب معلّقاً على هذا المعجم الديني المستخدم في المعارك الدّائرة: "تكاد أسماء الصّحابة والتّابعين والعلماء والمجدّدين، تنفد من كتب التّاريخ الإسلامي، لكثرة ما استخدمت في سورية واستهلكت، فمن ينوي اليوم تأسيس كتيبة أو لواء أو فرقة أو جيش أو تجمّع أو جبهة أو حركة في سورية لم يبقَ لديه سوى اللّجوء إلى أسماء قادة وشخصيّات من العصرين الأمويّ والعباسيّ، وقد يستعين ببعض السّلاطين العثمانيين، أو أسماء لأعمال دراميّة تاريخيّة، وهذا ما حدث فعلاً في أسماء الفصائل والكتائب والمعارك وحتى العمليات الصغيرة". زين كرم، مجلّة عنب بلدي، 2016/09/11، عدد 238.

انظر: https://www.enabbaladi.net/archives/102960#ixzz4q9HBg54B

19- تقرير هيومن رايتس واتش: سورية أحداث2015، على الموقع:

https://www.hrw.org/ar/world-report/2016/country-chapters/285669#64171b

20- خلاصة هذه الفتوى يلخّصها القول الصّادر في فتوى ضرورة قتل داعش واستئصالهم باعتبار أنّهم من الخوارج: "وقد أمر النبيُّ عليه الصّلاة والسّلام بقتل الخوارج وقتالهم بدون تردّد قتالاً يستأصلهم، فقال في حديث أخرجه البخاري ومسلم: «لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد وأمر بتتبّعهم لقتلهم»، اليعقوبي، إنقاذ الأمّة، ص 42.

21- ومن المهمّ التّذكير بأنّ هذا الاعتقاد بضرورة التّطهير وما ترتبط به من فتاوى مرتبط بسياق فكرة النّهايات وانتشارها وسياق كلّ طرف لتكون النّهاية على يديه بأن يستأصل العدوّ ويطهّر الأرض منه. فهو ليس مفهوماً عقابيّاً بمعنى الانتقام/ الثأر، بل فيه أيضاً دلالة الكاترسيس اليونانيّة، وهي الدلالة التي تخفي الشرّ الكامن فيه. ويشير مرسيا إلياد إلى ارتباط عودة معتقد ديني ما بتوفّر ظروف خاصّة استثنائيّة تساعد تلك الفكرة على العودة من جديد، وهو ما نودّ تأكيده من أنّ عودة العنف الديني متزامن مع سياق عالمي أضرم نيران هذه العودة. انظر فكرة مرسيا إلياد في:

Mircea Eliade, Histoire des croyances et des idées religieuses, TI, Payot, 1976, p43.

الجميع عمليّات التّطهير الجماعي والقتل الجماعيّ بتلك الحجج الدينيّة المستمدّة ممَّا يسمّونه مجتمعين «منهاج النبوّة»، وسمّى دعاة قتال الاستئصال ذلك «علاجاً نبويّاً»[22]. فأمَّا تنظيم الدّولة، فقد رفع شعار «باقية»[23]، وأمَّا خصومهم، فقد أطلقوا حملات تحرّض على القتل والإبادة تحت هاشتاغ: «فهل ترى لهم من باقية؟»[24]

وكان لبعض مراجع السّلفيات الجهاديّة آراء ومقالات مع قتال عاد أو ضدّه أو مع هذا القتال وضدّه في الوقت نفسه، وسنتّخذ تنظير المقدسي نموذجاً مثالاً، ونعتمد أساساً على نصيّن له: كتابه «ملّة إبراهيم»[25]، ومقاله في فتوى عاد[26]، ونحاول مقارنة ذلك التّنظير بما نشرت «داعش» في «دابق» من مقالات تتّصل بفتاوى القتل والاستئصال والمباهلة، وهذه نماذجُ سنحاول مقارنتها ما أمكننا بنصوص القرآن والأصول والحديث. لأنَّ فرضيّتنا أنَّ البنية الميثيّة واحدة، ومن يُراجع أدبيّات الفتاوى والمعارك الكلاميّة سنة 2014 مثلاً التي اشتدّ فيها قتال القوى المتصارعة باسم الدين، يلاحظ استخدام الأطراف المتواجهة المبرّرات نفسها لتقتيل بعضها بعضاً واستئصال بعضها بعضاً: فهذا جيش الإسلام ضدّ الدّولة الإسلاميّة، وهذا جيش اليرموك ضدّ حركة المثنى، وجند الأقصى ضدّ حركة أحرار الشّام الإسلاميّة، ... وهكذا دواليك. وإنَّ النّاظر إلى هذه الحروب والدّماء والفصائل والمعارك ليندهش من حالة التوحّش وسيادة العمى والعدميّة باسم حماية الدّين والدّفاع عن الإسلام[27].

22- هي دعوة أطلقها خالد زروان يوم 2014/08/13، ودعا فصائل المعارضة إلى تبنيّ ما سمّاه بالعلاج النبوي لظاهرة داعش: "استجابة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم (لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ)، ندعو جميع الفصائل والكتائب والألوية إلى الوعي على خطورة العصابة التي شخّصها لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصف لكم علاجها وفق الطب النبوي (لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ) أيْ قَتْلًا عَامًّا مُسْتَأْصِلًا! وندعوكم إلى إطلاق حملة موحّدة على جميع الجبهات تحت اسم: فهل_ترى_لهم_من_باقية لاستئصال هذا الورم السرطاني من الجذور وندعو الناشطين إلى تبني الحملة والعمل بكل ما من شأنه أن يدفع إلى تبني هذا العلاج النبوي النّافع لداء مستفحل قد فتك بجميع ساحات الجهاد واليوم يهدّد ثورة الإسلام في الشّام." انظر ذلك على موقع عوين يوم 2017/10/30: http://wp.me/p3Ooah-3J0

وقد ردّت داعش على هذه الحملة بمزيد من التوحش وبارتكاب أشدّ المجازر وحشيّة بدير الزور يوم 14/ 2014/08. وقد ذكر تقرير حقوقي من منظمة مستقلة غير حكوميّة سوريّة أنَّ عدد المجازر التي ارتكبتها داعش في نصف شهر فقط يصل إلى 15 مجزرة جماعيّة، ومن بين الضّحايا أطفال ونساء، هذا فضلاً عن القتل الفردي والمتفرق، إضافة إلى عمليات تهجير جماعيّة. فهذه الممارسات التي تخالف أصلَ أحكام فقهيّة تحث على عدم ايذاء النساء والأطفال وحرق الأشجار وما إلى ذلك من آداب القتال الإسلاميّة، تبرر بمنطق الهلاك الجماعي الإلهي كما سنرى. انظر التقرير الحقوقي حول المجازر المرتكبة في:

http://sn4hr.org/public_html/wp-content/pdf/arabic/ISIS_Report_Deir_Al_Zour.pdf

23- انظر مثلاً العدد الخامس من دابق الذي يحمل عنوان "باقية وتتمدّد"، صدر في نوفمبر 2014.

24- http://wp.me/p3Ooah-3J0 وهذا الهاشتاغ هو في الأصل آية قرآنيّة في سورة الحاقة في سياق سرديّة هلاك عاد. انظر الحاقة 69/ الآية 8.

25- أبو محمّد عاصم المقدسي، ملّة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين، وأساليب الطغاة في تمييعها وصرف الطغاة عنها، نشر منبر التوحيد والجهاد.

26- انظر ذلك النصّ على هذا الرابط الذي عوين يوم 2017/10/20

https://tlmith.blogspot.com/201603//blog-post_40.html

27- يشير التقرير العالمي لهيومن رايتس وتش حول أحداث 2015 في سورية الذي نشر على موقع: https://www.hrw.org/ar/world-report/2016/country-chapters/285669 وعوين يوم 19/08/2017. إلى بلوغ "عدد قتلى النزاع الدائر هناك بحلول أكتوبر/ تشرين الأول 2015، أكثر من 250 ألف شخص بينهم أكثر من 100 ألف مدني. يعيش أكثر من 640 ألف شخص تحت حصار طويل الأمد في سورية. كما نتج عن النزاع أزمة إنسانيّة مع نزوح 7.6 مليون داخلياً ولجوء 4.2 مليون شخص إلى دول الجوار"، إنّها مجازر جماعية فظيعة ارتكبت بوحشيّة من جهات متعدّدة تحت مسميّات دينيّة.

إنَّ مشهد السّاحة السوريّة سنة 2014 شبيه بأرض خراب نزلت عليها قوارع الآلهة الغاضبة، إذ لم تسلم من فتاوى الاستئصال والتّطهير امرأة ولا طفل ولا حجر ولا شجر ولا حيوان، فرأينا أثناء تقدّم تنظيم الدّولة نحو الشّمال، وكلّما سقطت بيديه قرية أو مدينة، ارتكب أشكالاً من التّقتيل الجماعي والحرق وهدم الآثار والمدن العتيقة والتّحريق والتّخريب. وفتح العالم فمه مصدوماً أمام هول المشهد الفظيع الدّامي[28].

وكانت البشاعة تتحقّق بشرعيتّيْن أساسيتّيْن: خطاب ديني يضفي المشروعيّة على الجرائم ضدّ الإنسانيّة، ودعم مالي وعسكري تضخّه جهات تملك التقنية والمال اللازم للوصول إلى غاياتها[29]. ونحن في مقامنا هذا لا نغفل عن الدّور السّلبي الذي لعبته القوى الكبرى في إطالة الصّراع الدّائر وتأجيجه وفي المسؤوليّة الأخلاقيّة والقانونيّة والعسكريّة لهذه القوى التي لها مصالح في تخريب النّظام القائم في المنطقة، ولا نستبعد أن تكون هذه الحركات الجهاديّة المقاتلة مخترقة من مخابرات دول عظمى تتلاعب بها خدمة لمصالحها في العالم[30]، ولكنّنا نقدّر أيضاً العامل الذاتّي الذي كان سبباً مباشراً للهوان وللعدميّة التي وضع فيها المسلمون أنفسهم بسبب عاطفتهم الشّديدة نحو الدّين ونتيجة لعمليّات من الدّمغجة والتّلاعب بالعقول استخدمت فيها «سنّة ثقافية» تبيح بسبب عدم مراجعتها النقديّة الجذريّة تأويلاً مجنوناً[31]للوجود يحوّله إلى ساحة حرب تفجّر فيها الذّات نفسها بنفسها كما سنبيّن ذلك.

28- انظر مثلاً تقرير هيومن رايتس وتش لسنة 2015.

29- تطرّق باحثون عدّة إلى قضيّة التمويلات، انظر مثلاً رأي جلبير الأشقر في: الشعب يريد، بحث جذري في الانتفاضة العربيّة، ترجمة عمر الشافعي بالتعاون مع الكاتب، دار الساقي، ط1، 2013. وهو يضيء جوانب لبدايات الثورات العربيّة وكيفيّة تحوّل بعضها إلى انتفاضات مسلّحة وحروب أهليّة. وقد أشار إلى أنّ هذه الجماعات السنيّة المقاتلة منذ البداية كانت تصلها أموال من السعوديّة أو من المؤسسة الدينيّة الوهابيّة، وهو ما جعلهم يتفوّقون على شبكات المواطنين المقاتلين المنتمين إلى الجيش السوري الحرّ. انظر ذلك في المصدر المذكور ص ص 232-233.

30- إنَّ قراءة دراسات عديدة بأقلام مؤرخين غربيين يدل على أنّ القوى الماليّة السياسيّة العسكريّة الكبرى تتلاعب بهذه الحروب الأهليّة خدمة لمصالحها الماليّة/ السياسيّة، وللتوسع في هذا يمكن العودة مثلاً إلى كتاب ترجمته سلافة الماغوط سنة 2015 وصدر عن دار الحكمة بلبنان يحمل عنوان خط الرمل للمؤرخ جيمس بار، وهو يصف فيه هذا التلاعب العالمي بشعوب منطقة الشرق التي قسّموها وتصارعوا حولها وأجّجوا آلامها، بل مارسوا فيها أبشع العقوبات الجماعيّة منذ الانتداب البريطاني وحتى اليوم، وانظر قوله: "اعتقل جنود بريطانيون هؤلاء المشتبه بهم بتهمة مساعدة المتمردين المسلحين وفجروا بالديناميت أو البلدوزر بيوتهم كانت تفرض عقوبات جماعيّة على القرى حيث المتهمون لا يمكن تمييزهم عن الآخرين"، جيمس بار، خط في الرمال، بريطانيا وفرنسا والصراع الذي شكل الشرق الأوسط، دار الحكمة، لندن، 2015، ص244.

31- إنّنا نعتبر حصول هذه الفظاعات بمبررات دينيّة وثقافيّة لهؤلاء الشباب الذين شدّوا الرحال معتقدين أنّهم على حق وأنّهم إذ يموتون أو يُميتون فإنّهم على صواب، إنّنا نعتبر ذلك جنوناً بالمعنى الذي فسّره فوكو في تاريخ الجنون، من كون اللامعقول هو حريّة العقل نفسه حين يقرر أن يغامر فيصل إلى حده ويمارس لعبته في الحرية بشكل خطر يؤدي به إلى أن ينقلب على نفسه بنفسه، ففوكو يرى أنَّ الجنون شكل من أشكال المعقوليّة الممكنة حين تمارس الحريّة بشكل غير محدود. ويعتبر أنَّ المجنون "يفلت من نفسه ومن حقيقته كمجنون لكي يصبح في منطقة ليست لا حقيقة ولا براءة عرضة للخطأ والجريمة أو الكوميديا"، ويقرّ أنَّ "الجنون لا يتعلّق بخلط في الفكر أو بلورة غير ناضجة، إنّه الأثر المنطقي لبنية بالغة الانسجام، إنّ الجنون ليس ممكناً إلا في اللحظة البعيدة جداً، ولكنّها لحظة أساسيّة يخرج منها من نفسه داخل الفضاء الحرّ للاحقيقة، لكي يتشكل على إثر ذلك باعتباره حقيقة". انظر تفصيل ذلك في: ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تعريب سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2006، ص ص515-517.

لذلك تتمثّل مساهمتنا في التّفكير في هذه اللّوحة الموحشة الموجعة بالانكباب على مصدر الدّاء نفسه[32]وتحليل هذا الخطاب الدّيني وتفكيك أصول هذه الشرعيّة التي تجعل عمليّات الإبادة الجماعيّة مقبولة في ضمير من يؤمن بأنّه يطبّق تعاليم الدّين، وتمسي تلك الجرائم عبادة يُثاب فاعلها عند الله فلا يرى هذا المؤمن حرجاً في ما يُرتكب من فظاعات ولا يشعر بذنب ولا يتردّد أمام قطع الرؤوس والتّنكيل بالجثث.

ونفترض أنَّ ما يتحكّم في أنطولوجيا الجهاد والسّلفية الجهاديّة برمّتها وفي فتاوى الاستئصال والقتال والتّطهير ليس فقط فكراً إخوانيّاً أو وهابيّاً يعود إلى أواخر القرن الثّامن عشر ولا نصوص ابن تيميّة ولا تأصيل الشّافعي، وإنَّما المتحكّم في هذه المعتقدات الدينيّة بنية ميثيّة كامنة في الذّهن البشري مكمناً استعاريّاً تعود بشكل طقسي دوريّ منتظم مع حركات التاريخ وأحداثه الكبرى. وقد تمكّنت الحداثة الغربيّة من الوعي بها وتفكيكها والمرور من دلالتها الحرفيّة إلى رمزيّاتها ومعانيها الحافّة. وأمَّا العقلُ السّلفي الإسلاميّ، فما يزال يتشبّث بدلالاتها الحرفيّة، فيمارس طقس الجهاد ممارسة غير واعية كما يمارس كلّ طقس. ونلخّص هذه البنية الطقسيّة- الميثيّة[33] في قصّة «الميثاق الإلهي»[34].

32- يعتبر بعض الكتّاب العرب العامل الثّقافي الدّاتي هو الدّاء العضال، ويقول علي حرب في هذا الصّدد: "إنّه الدّاء العضال الذي يفتك بالمجتمعات العربيّة لكي يحوّل الحياة إلى جحيم لا يطاق، بقدر ما يحيل الدين إلى فيروس قاتل، وأيّ داء أشد فتكاً من خطف الأبرياء وقطع الرؤوس أو تقطيع الجثث، لأناس أبرياء آمنين، لا ذنب لهم ولا جريرة سوى أنّهم ليسوا نسخة طبق الأصل عن جلاديهم، أو لم يولدوا مسلمين، ...الأصوليّات التي لا يتقن أهلها سوى لغة الاستئصال وأدوات الدّمار"، علي حرب، الإنسان الأدنى، أمراض الدين وأعطال الحداثة، ص 136. ويقرّ جان لوك نانسي بأنَّ هذه الصراعات ليست حضاريّة بل هي صراعات أهليّة: "إنّها حرب أهليّة، وحروب داخليّة حول مفاهيم المدنيّة والمواطنيّة والتمدن التي وصلت إلى تخوم العالم وبلغت أقصى حدودها التصوريّة. وعند هذه التّخوم ينكسر المفهوم وينحلّ ثمّ ينفجر الكلّ وتنفتح الهوّة...هي حرب داخل التّوحيد الذي هو خطاطة للغرب ولما فيه من انقسام يصل هنا أيضاً إلى أبعد الضفاف والتخوم، إلى شرق الغرب، إلى حد الانكسار والهاوية في صلب اللاهوت" تعريب عبد الوهاب المؤدّب، أوهام الإسلام السياسي، تعريب محمّد بنيس والمؤلف، دار تبقال للنشر، ط1، 2002. ص 172. انظر أيضاً النصّ الأصلي في:

Jean-Luc Nancy, La communauté affrontée, p.11-12, Galilée, Paris, 2001, 73.

33- إنَّ عملية التلخيص التي نقومُ بها هنا هي محاولة لتقديم جدول paradigme نحاولُ في بقيّة المقال تفسيره، وهذه العمليّة يصفها ليفي ستروس بأنّها أوّلاً بيداغوجيّة، وثانياً بنيويّة ومنهجيّة وعلميّة، لأنّها "وسيلة تعليميّة لصالح القارئ، وهو في الوقت نفسه نوع من المقاربة المسبقة لنموذج نحاول إنشاءه". ويعتبر ستراوس أنَّ "الأمر هنا لا يتعلق بملخّص بل باستخلاص معمار سري (...)، بعد ذلك يَطرح مشكلاً عملياً هو كيف شرح ذلك للقارئ؟" فنحن هنا نسعى أيضاً إلى توضيح فكرتنا للقارئ عبر هذا التلخيص الذي نقدمه ونعتبره افتراضاً نفسر به البنية الخفيّة السريّة المتحكمة في الفكر المتطرّف الجهاديّ. انظر ذلك في المحاورة التي أجراها ريمون بللور مع كلود ليفي ستراوس، نشرت في مجلة بيت الحكمة، المغرب، العدد4، 1يناير 1987، ص12.

34- هذه رواية يستشهد بها ابن تيميّة في مقام الإقناع بوجوب توحيد الله وعبادته في مجلّد توحيد الألوهيّة من مجموع فتاواه، وهي تؤكد على أنَّ بين الله وبني آدم في أوّل الخلق عهداً نظم حقوق كلّ طرف منهما: فأمّا حقّ الله، فهو عبادته وتوحيده، وأمّا حقّ بني آدم، فهو النّجاة من عذابه: وعذاب الله هو الاستئصال في الدنيا (هلاك القرى)، والنار في الآخرة (الجحيم)، حسب ما تقرّه السّنة الثقافيّة: "يَا ابْنَ آدَمَ خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ لَكَ، وَخَلَقْتُكَ لِي، فَبِحَقِّي عَلَيْكَ أَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِمَا خَلَقْتُهُ لَكَ، عَمَّا خَلَقْتُكَ لَهُ". وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ مُعَاذٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ قَالَ قُلت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ: حَقُّهُمْ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ"، انظر ذلك في المصدر المذكور، المجلّد الأوّل، ص23. إذن فإنَّ كلّ التنظير الجهادي قائم على الوفاء لهذا العهد من أجل النّجاة من العذاب مقابل العبادة والطّاعة المطلقتين.

وقد تطوّرت التكنولوجيا التي صنعها الإنسان ليعمر الأرضَ ويتحكّم بها، ولكنّها لم تُسهم في وضع حدّ لتبعيّته الأنطولوجيّة لفكرة تاريخ النّجاة وللميثاق المقدّس، بل أمست تكنولوجيا التقدّم التّاريخي في خدمة نموذجي العود الأبدي والجنّة الموعودة[35].

1ـ الفتوى والفتوى المضادّة: كيف تخفي آثار جريمة قتل أخيك؟

اشتدّ الصّراع بين الإخوة المجاهدين المولودين في رحم سنيّة واحدة وتنافسوا ليستأصلوا بعضهم بعضاً مستخدمين هذه المرَّة أحدث التقنيات التي اخترعها العقل البشريّ، وقد فسّر هذا العنف الدّائر بين الإخوة رينيه جيرار وهو يفصّل مفهوم «الأزمة الأضحويّة» التي لا تنفرج إلّا بخسارة المثيل[36]. فهو صراع بين نظيرين متماثلين يرى أحدهما وجه ذاته في المرآة عدوّاً. وقد تسابق «المجاهدون» يستأصل الأخ أخاهُ لعلّه ينجو من حتفه الخاصّ، وهكذا فإنَّ كلّ عمليّة قتل تذكّرنا بقتل هابيل وكلّ دم يذكّرنا بالدّم البدئي ولا نجاة من الغضب الإلهي سوى بأمر واحد: أن يكون القتلُ خاضعاً لمشيئة ذلك الإله مندرجاً ضمن تاريخه المقدّس وضمن مهمّة النّاجي من الأخوين: تعمير الأرض وخلافة الربّ وحفظ العهد وتبليغ الأمانة إلى يوم يبعثون. وبهذه الشرعيّة المفارقة تمّ إخفاءُ آثار الدّماء على قميص الجاني[37].

فقد كان على كلّ قاتل أن يتعلّم كيف يقتل القتيل ويدفن جثّته ويُنبت حولها الزّهور ليُخفي جريمته على حدّ عبارة جيجاك[38]. وقد كانت الفتوى ضرورة أخلاقيّة حتى يُمسي القتلُ عادلاً ومقبولاً في ضمير القاتل، فلا تتمّ أعماله حتّى تصدر في ذلك فتوى تبيحه وتبيح التّمثيل والتّعذيب وغير ذلك[39]، وسهّلت ذلك الوسائط

35- إنَّ بنية القرابة تتحكم باللاشعور الدّيني، ويتمّ بمقتضاها استبدال وظيفة "الأب" أو "الملك" بالفكرة/ الرّمز/ الشيء: "الربّ" على سبيل الاستعارة، وبذلك يتمّ عقد بين الإنسان المتديّن وهذا الربّ الذي صار مفارقاً للعقل الذي أنتجه وتتمّ الدخلنة. وبموجب هذا العقد الحاصل في الذّات العاقلة/ واللاشعور تتمّ الطّاعة ويتحقق المبدأ الأخلاقي الأوّل اللازم ليتأهّل الإنسانُ ليصبحَ اجتماعيّاً. ولكنَّ عدمَ الوعي بهذه البنية المتخيّلة الضروريّة ووظائفها ينتجُ عنه تصديقُ الأسطورة تصديقاً حرفيّاً، ومن استتباعات ذلك أن تستوجب هذه الطّاعة تكليفَ الإنسانِ بمهمّة مقدّسة هي تطهير الأرض من الكفّار بدلاً عن الربّ ذي القوارع، وهكذا نجدُ أنفسنا أمام بنية الجهاد العميقة اللاشعوريّة المغروسة في أصل الحاجة إلى النّظام الاجتماعيّ، فما الجهاد الإسلاميّ سوى استتباع للعقد القائم وتواصل لتدخّل الربّ/ المتخيّل في التّاريخ على أيدي جنده الطّاهرين المختارين.

36- «c'est toujours par la violence, par l'expulsion d'un des deux frères que s'effectue la résolution de la crise, le retour à la différenciation» R. Girard, *Des choses cachées depuis la fondation du monde*, T1, p217.

37- في خاتمة كتابه إدارة التوحّش يؤكد الكاتب على هذه الشرعيّة الدينيّة المفارقة التي بها يتمّ تبرير القتال وما يتبعه من فظاعات قائلاً: "معركتنا هي معركة توحيد ضدّ كفر وإيمان ضدّ شرك، وليست معركة اقتصاديّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة" أبو بكر ناجي، إدارة التوحش، ص111.

38- سلافوي جيجاك، سنة الأحلام الخطيرة، تعريب أمير زكي، دار التنوير، 2013، ص5.

39- وهذه الفتاوى لعبت دوراً أخلاقيّاً تبريريّاً لكمّ العنف الذي سيمارس على أرض المعركة. وهذه التبريرات الأخلاقيّة أو الفتاوى ضروريّة ولازمة في كلّ أعمال الحرب، بل تعتبر عنصراً من عناصر إنجاح حرب ما أو إفشالها، وقد أقرّ بذلك أحد الجنرالات معقّبا على انكشاف التّعذيب بسجون أبي غريب وأثر تلك الفضيحة على معنويّات الجنود: "عندما تفقد المبرّرات الأخلاقية العالية تكون قد فقدت كلّ شيء"، انظر التفاصيل في: كريستوفر.هـ. بايل، التّعذيب، التّهرب من المسؤوليّة، الحكومة السريّة وجرائم الحرب وحكم القانون، تعريب: محمّد جياد الأزرقي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط1، 2012، ص30. فلا أحد يقدّم نفسه للموت في الحرب يأساً، وإنّما يقدمُ الفاعل على الموت إيماناً بعدالة ما يفعل وما يموت من أجله مهما كان فعله شنيعاً. إنَّ للجنون معقوليّته، كما يبيّن ذلك فوكو في تاريخ الجنون الذي أحلنا إليه في هامش سابق.

الحديثة التي جعلت الزّمن والمكان يتضاءلان أمام سرعة الفتوى ونجاعتها[40]، وانتشرت هذه الفتاوى على المواقع الافتراضيّة وصفحات التّواصل الاجتماعيّ والمواقع الرسميّة للمشايخ الذين لعب كلّ واحد من بلده ومن منزله وبحاسوبه أو هاتفه الذكيّ دوراً في إباحة هذا الدّم وتحريم ذاك[41]، فجميعهم تورّط من هذا الجانب أو من ذاك في القتل الجماعيّ الذي اشترك فيه المسلمون وأبناء الوطن الواحد واللّغة الواحدة والدّين الواحد والمصير الواحد، فكلّ فتوى عبّرت في لحظتها عن الدّفاع عن مصالح معيّنة، إمّا تتّصل بالنّظام السوريّ القائم، أو بالثّورة التي اتّخذت صيغة قتاليّة، أو بالفصائل التي شاركت في هذا المشهد الدّامي لأغراض متنوّعة تُجمَع ضمن هدف واضح مصرّح به هو «إعلان خلافة إسلاميّة».

وقد نشر تنظيم الدّولة الإسلاميّة فيديو في جانفي 2015 لحرق الطيّار الأردني معاذ الكساسبة وتخلّل المشاهد المروّعة نصّ مأخوذ من ابن تيميّة فيه فتوى وظّفت لتبرير التّمثيل وتحريق الطّيار[42]. وكانت الفتوى مقتطعة من سياقها من نصّ ابن تيمية[43]. ومع هول الحدث وأمام ألسنة النّيران المضطرمة في جسد الطيّار الشّاب، انقسم فقهاء العالم الإسلامي إلى مناد بالصّمت وعدم جواز تدخّل العامّة في أمور الدين[44]، وإلى محتجّ مكفّر بدوره للتّنظيم وأتباعه[45]. وصدرت فتاوى عديدة للحثّ على قتال داعش واستئصالهم سمّيت

40- انظر في دور الفتيا ومأسستها وتعارضها مع الواقع وتطوّر أشكال تأثيرها مع الوسائط الحديثة دون أن تتغيّر في جوهرها ما ألّفت زهية جويرو: كتابها الإفتاء بين سياج المذهب وإكراهات التّاريخ، دراسة في فتاوى ابن رشد الجدّ، بيروت، دار الطليعة، 2014 وكذلك الوأد الجديد، مقالات في الفتوى وفقه النّساء، دار مسكيلاني للنشر، ط1، 2014.

41- انظر في أثر المواقع الإلكترونيّة على انتشار مفهوم معيّن للإسلام وللهويّة الإسلاميّة وانتشارها المجنون واعتماد الشّباب عليها للحصول على معلومات بشأن الإسلام دراسة عنوانها:

Bunt, G.R, Islam in the digital age, London, 2003, sterling and Virginia: Pluto Press.

42- ورد في الفيديو عن ابن تيمية قوله: "فأمّا إذا كان في التمثيل الشائع دعاء لهم إلى الإيمان أو زجر لهم عن العدوان، فإنّه هنا من إقامة الحدود والجهاد المشروع".

43- تتمثل الفتوى كاملة في: "وَيُكْرَهُ نَقْلُ رَأْسٍ، وَرَمْيُهُ بِمَنْجَنِيقٍ بِلَا مَصْلَحَةٍ... إن مثل الكفار بالمسلمين فالمُثْلَةُ حَقٌّ لَهُمْ، فَلَهُمْ فِعْلُهَا لِلِاسْتِيفَاءِ وَأَخْذِ الثَّأْرِ، وَلَهُمْ تَرْكُهَا وَالصَّبْرُ أَفْضَلُ، وَهَذَا حَيْثُ لَا يَكُونُ فِي التَّمْثِيلِ بِهِمْ زِيَادَةٌ فِي الجِهَادِ، وَلَا يَكُونُ نَكَالًا لَهُمْ عَنْ نَظِيرِهَا، فَأَمَّا إذَا كَانَ فِي التَّمْثِيلِ الشَّائِعِ دُعَاءٌ لَهُمْ إلَى الإِيمَانِ، أَوْ زَجْرٌ لَهُمْ عَنْ العُدْوَانِ، فَإِنَّهُ هُنَا مِنْ إقَامَةِ الْحُدُودِ وَالْجِهَادِ الْمَشْرُوعِ، وَلَمْ تَكُنْ القِصَّةُ فِي أُحُدٍ كَذَلِكَ، فَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ أَفْضَلَ، فأمَّا إن كانت المثلة حقًا لله تعالى، فالصّبر هناك واجب، كما يجب حيث لا يمكن الانتصار، ويحرّم الجزع، انتهى." ابن تيمية، المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب محمّد بن عبد الرحمن بن قاسم، ط1، 1418هـ، ج3، ص223. ونلاحظ الفرق الشاسع بين الفتوى من المصدر كاملة والفتوى التي تمّ اقتطاعها منها وتوظيفها للتنكيل بالطيّار.

44- وجدي غنيم مثلاً كان واحداً من بين الذين حرَّموا الخوض في الأمر على العامّة، معتبراً أنَّ الطيار كان يقاتل الدولة الإسلاميّة. وقد نشر ذلك في فيديو على موقع اليوتيوب.

45- انظر بعض المواقف المختلفة في هذا التقرير الصحفي لموقع العربية الأخباري:

https://arabic.cnn.com/middleeast/2015/02/04/ibn-taymiyah-islam-quran

تسميات متعدّدة أهمّها فتوى دفع الصّيال، وقد بُرّرت هذه الفتوى في سياق أعمّ هو سياق جهاد الاستئصال، أو ما يُسمّى بقتال عاد[46].

وقتال عاد اسمُ قرآنيّ قديم لمسمّى قديم هو «الحروب التي تهلك جماعات وتبيدها»، فخصوصيّة القرآن أنّه قرأ هلاك الأقوام السّابقة قراءة ثوابيّة/ عقابيّة، وجعل التّاريخ تاريخ نجاة دائمة من ذلك الهلاك[47]، وربّما كانت تلك القوارع كوارث طبيعيّة، ولكنّها في منطق القرآن أمست عقاباً إلهيّاً موجباً على فعل الجحود السّابق. ولم يتغيّر سوى أداة هذه الحرب إذ طوّر المحاربون تكنولوجيّات القتل، فهذه التّسمية تعني في أوّل ما تعنيه الإبادة الجماعيّة على طريقة قوم عاد الذين يُروى عنهم أنّهم كفروا فأرسل الله عليهم عقاباً جماعيّاً أبادهم عن بكرة أبيهم وأهلكهم بريح صرصر عاتية، فإذا القوم صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية[48]. فنحن هنا أمام ضرب معلوم من العقاب يتّصف في السنّة الثقافيّة بكونه إلهيّاً وجماعيّاً وتطهيريّاً واستئصاليّاً ويقترن بالإفناء والتجدّد، وبفكرة قرآنيّة تتعلّق بتصوّر الله، فـ«هو المبدئ والمعيد»[49]، أي بذلك التّطهير القائم على الإبادة وخلق طائفة جديدة. ففي هذا النّوع من «الجهاد» تجتمع الأضداد، كما سنرى، وهذا العقاب المُسمّى عقاب عاد، لا يختلف في تبريراته عن عقاب الردّة الذي به أحرق الكساسبة ولا عن «مباهلة الطوفان». فأمّا النّار، فمن أهمّ رمزيّاتها التّطهير والخلق الجديد، وأمّا الماء، فهو أيضاً يلعب الوظيفة الرمزيّة نفسها، وهكذا فإنّ الفناء بالريح الصرصر أو النّار أو الماء أو القنابل المتفجّرة ورصاص الرشاشات التي تذكّر بالحجارة من سجيّل أو عناقيد الموت المنهمرة كأمطار طوفانيّة، إنّ كلّ هذه الكوارث التي مزجت بين الطبيعي/ التكنولوجي وجوهٌ لعقاب الاستئصال، بمعنى استئصال الشرّ وتطهير الأرض والتجدّد الدائم. وتعتبر سرديّة الألوهة الإسلاميّة ذلك من «آيات الله» ومن أخصّ صفاته، ويرتبط كلّ ذلك الهلاك في القرآن نفسه بالمُباهلة والجحود وإقرار الوحدانيّة، ولذلك فإنّ هذه الفتاوى التي ساهمت التكنولوجيّات الحديثة في نقلها بسرعة وفي انتشارها ووصولها لأكبر عدد من النّاس ترتكز على موروث تأويلي معاصر وقديم تحرّكه في رأينا نماذج أصليّة كامنة في الذّهن البشري. وفي ما يلي تفصيل وجوه منها.

46- وهذه الفتاوى تُبرّر داخل منطق الحدود، فهي حقّ لله توجب التّكفير عن الذنب، فيفقد العقاب دلالة الانتقام ويُمسي تطهيراً بمعنى استئصال الشرّ الكامن وإبقاء الخير فقط. بمعنى أنّ قتل البغاة تطهير وتكفير عن ذنوب يمكن أن تؤدي إلى الهلكة الجماعيّة، فيتمّ استئصال العضو المريض لينجو بقيّة الجسم، وهو ما يفسّر إلحاح المقدسي في فتاواه التي نشرت أثناء الحرب بين الحركات الجهاديّة في سورية مثلاً على عدم تكفير الدواعش، وهو حرص نجده أيضاً عند ابن تيمية ينقله عن الشّافعي وعن السّلف الذي روى قتال صفين والفتنة، ويعتبر ابن تيمية أنّ قتال البغاة إقامة حدّ، وأنّ قتلهم لا يخرجهم من الأخوة والإيمان، بل لعل قتلهم كفارة لهم عن ذنبهم فيرحمهم الله يوم القيامة بما عذبهم به على يد إخوانهم في الدنيا من القتل والتنكيل. انظر شرح هذا مفصّلاً في الجزء 35 من مجموع الفتاوى الذي يضمّ بسطاً لحكم قتال أهل البغي إن كان ذلك يخرجهم من دائرة الإيمان أم لا.

47- للتعمّق في هذه الفكرة نحيل القارئ على أطروحتنا في الثواب والعقاب، مودعة بكليّة الآداب بمنوبة منذ 2013.

48- "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ" الحاقة69/6-7-8.

49- انظر البقرة28، يونس4، طه 55، الأنبياء 104... إلخ من الآيات التّي تثبت جوهر هذا التصوّر.

2ـ ميث (أسطورة) الميثاق الإلهي:

من الربّ المحارب وآياته إلى آخر جنديّ من جنود الخلافة:

تقوم سرديّة الألوهيّة في الإسلام على فكرة الربّ الخالق الواحد الأعلى[50] الذي بعث الأنبياء لهداية البشر ومحاربة الطّواغيت منهم[51]. والنّاظر في القرآن واجد فيه، وخاصّة في الآيات المكيّة، قصصاً تتعاقبُ ذات بنية سرديّة واحدة[52]، وهي بمثابة خطاطة سرديّة تتحكّم في تمثّلات المؤمنين[53]. وقد تأسّس حول هذه السرديّة القرآنيّة العلمُ الذي بنته المؤسّسة الدينيّة وأصّلته. وانظر رسالة الشّافعي فإنّك واجد في بدايتها، وهو يضعُ أصولَ الأصول، ارتكازاً على هذه السّردية بالذّات: الله الخالقُ الباعثُ من عدم[54]، والنبيّ المرسلُ للعشيرة الأقربين والذي تتمحور وظيفته حولَ النّجاة من الهلكة لا الأخرويّة فقط بل قبل ذلك الهلكةُ الدنيويّة[55]، أي مصير القرى والأقوام البائدة التي تمثّل قصص القرآن والسّيرة النبويّة مرجعاً لها. فمحمّد هو مركز هذا

50-"اقرأ باسم ربّك الذي خلق" العلق1/96. وهي الفكرة التي سنجدها منذ جمع القرآن بين دفتي كتاب في مصحف مروراً بـ"توحيد الألوهيّة" لابن تيميّة (انظر المجلد الأوّل من مجموع فتاوى ابن تيمية، توحيد الألوهيّة، جمع عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم وابنه محمّد، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وزارة الشؤون الدينيّة، 2004) إلى آخر خطبة أذيعت على لسان البغدادي خليفة داعش يوم 28 سبتمبر 2017. والتي يبدأ فيها كلمته بالتّذكير بأنَّ الله هو الخالق وله يجب الشّكر والحمد، فهذه فكرة جوهريّة في بنيان السرديّة التي تؤدي إلى القتل باسم الربّ. انظر كلمة البغدادي في صيغة مكتوبة في هذا الموقع الذي عوين يوم 2017/10/25.

https://dawaalhaq.com/post/77153.

51- يقرّ باحثون أنَّ همّ الربّ الإسلاميّ لم يكن أرباباً مثله ولا حتّى محاربة الشّيطان، بل كان كلّ همّ الربّ الإسلاميّ محاربة الإنسان، لأنَّه كان جحوداً، ومحاربة من نصّب نفسه على الكون حاكماً دون تزكية من الربّ. انظر ذلك في: وحيد السّعفي، في قراءة الخطاب الديني، نجمة للدراسات والنشر والتوزيع، 2008، ص90.

52- ويلخّص الثّعالبي غاية هذه القصص المتعاقبة التي يفصّلها تفصيلاً في عرائس المجالس: "إنّما قصّ الله تعالى عليه القصص تأديباً وتهذيباً لأمّته، وذلك أنّه ذكر الأنبياء وثوابهم والأعداء وعقابهم، ثمّ ذكر في غير موضع تحذيره إيّاهم من صنع الأعداء وحثّهم على صنع الأولياء، فقال تعالى: "لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسّائلين"، وقال: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب"، وقال: "وهدى وموعظة للمتّقين"، ونحوها من الآيات"، انظر ذلك في عرائس المجالس، ص3.

53- انظر قصص القرى وهلاكها مثلاً في: الأعراف7، هود11، نوح71، القمر54، فصلت 41، الفجر89، الشمس91 وغير هذه المواضع التي تروي بعث نبي إلى قومه ورفض الدعوة وهلاك القوم شرّ هلاك.

54- هذه بداية الرّسالة، تتأسّس أيضاً على كون الله خالقاً، وتلك أكبر نعمه التي تستوجب الشّكر، أي ذلك أصلُ العقد الأنطولوجي: خلق يقابله الشكر: "بسم الله الرحمن الرحيم، أخبرنا أبو عبد الله محمّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السّائب بن عبيد بن عبدِ يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف المطلبيُّ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثمَّ الذين كفروا بربهم يعدلون. والحمد لله الذي لا يُؤدى شُكر نعمة من نِعَمِهِ" الشافعي، الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط1940، ج1، ص7.

55- "خصّ جلّ ثناؤه قومَه (أي النبيّ محمّد) وعشيرَتَه الأقربين في النّذارة، وعمَّ الخلقَ بها بعدهم، ورفع بالقُرآن ذِكر رسول الله، ثم خصّ قومه بالنّذارة، إذ بعثه فقال: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، وزعم بعض أهل العلم بالقُرآن أنَّ رسول الله قال: يا بني عبد مناف، إنَّ الله بعثني أن أُنذرَ عشيرتي الأقربين، وأنتم عشيرتي الأقربون." الشّافعي، الرسالة، ج1، ص13.

العقد[56]، لأنَّه على خلاف الأمم التي هلكت برسالات أنبيائها لم يهلك قومه به بل كان لهم رحمة، مع أنَّهم ابتهلوا ولاعنوه وكفروا به وهجّروه. وعادة الله أن يهلك أمثال هذه الأقوام الجاحدة. لكنَّ أمَّة محمّد نجت بفعلتها في الدنيا قبل الآخرة، وحتى عند فتح مكّة لم تُجبر على التّوحيد ولا الدّخول في الدّين الجديد، بل إنَّ من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

تقوم هذه الخطاطة على فكرة التّوحيد وحمل الرّسالة ووظيفتها غرس بُعد جماعي للنّجاة في الدنيا، إذ تتعلّق برسم هويّة أنطولوجيّة فوق- فرديّة ورسم مصير جماعيّ. ولا يتعلّق الأمر هنا بثواب وعقاب فرديّين فقهيين ولا بتحميل وتأصيل المسؤوليّة الأخلاقيّة الفرديّة الضروريّة لتكليف الإنسان ومحاسبته، بل نحنُ هنا أمام محاسبة الكلّ إذ يصبح مصير كلّ فرد معلّقاً على مصير الجماعة. وعندئذ فنحنُ أمام تصوّر للتّاريخ بما هو مصير جماعيّ لا فرديّ. ويجد هذا ترجمته في الميث (الأسطورة) المكرّر لخطاطة الهلاك الدنيويّ، فإمّا هداية ونجاة جماعيّتان، وإمّا كفر وعقابُ جماعيّ.

وهذه البنية الميثيّة/ الطقسيّة هي البنية نفسها التي يقوم عليها كتاب المقدسي «ملّة إبراهيم». ويبرّر لها بآيات القرآن نفسه التي تلحّ على رسالة التّوحيد وكون الأنبياء بعثوا رحمة قبل أن يكونوا نقمة في حال رفض أقوامهم اتّباعهم[57]. وهذا التّأصيل نفسه الذي قام به المقدسي في كتابه المذكور سيبرز أيضاً بوضوح في سلسلة المقالات التي نشرتها داعش والتي بيّنت منذ العدد الأوّل من مجلّة دابق أنَّها تلتزم بهذا الانتماء لملّة إبراهيم. ففي هذا العدد نُشر مقال عنوانه: «مفهوم الإمامة: الإمامة من مقتضيات ملّة إبراهيم»، وفيه أكّد التّنظيم أنَّ الإمامة الشرعيّة ممثّلة في الدّولة الإسلاميّة هي التي تمثّل ملّة إبراهيم في المناطق التي تسيطر عليها[58]. وعندما نعود إلى الشّافعي سنجده هو أيضاً يؤصّل أصوله بفكرة انضواء الأمّة المحمديّة ضمن الملّة الإبراهيميّة وبكون هذه الأمّة النّاجية بفضل محمّد مصطفاة تحديداً لخدمة الربّ وحمل ميثاق الشّكر والحمد

56- لقد سعت السنّة الثقافيّة لتأصيل العهد حول الوفاء لمحمّد نفسه، فتجد مثلاً الثّعلبي في طبقاته يروي كيف خلق محمّد في زمن البدايات العجيبة خلقاً عجيباً خارقاً، وبه كان الإسلام ديناً عجيباً خارقاً مرتبطاً بالزمن الأوّل، فكان محمّد قبل بقية الأشياء، وكان في كينونته السابقة تلك أصلُ الميثاق المقدّس. لقد أمر الله جبريل أن "يأتيه بالقبضة السوداء التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمداً صلى الله عليه وسلم، فهبط جبريل عليه السلام في ملائكة الفردوس المقربين الكروبين وملائكة الصّفح الأعلى، فقبض قبضة من موضع قبر النبي، صلّى الله عليه وسلّم، وهي يومئذ بيضاء نقيّة، فعجنت بماء التّسنيم ورعرعت حتى صارت كالدّرة البيضاء، ثمّ غمست في أنهار الجنّة كلّها، فلمّا خرجت من الأنهار نظر الحقّ سبحانه وتعالى إلى تلك الدرّة الطّاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى.....فعرفت الملائكة حينئذ محمّداً صلى الله عليه وسلم قبل أن تعرف آدم"، الثّعلبي، عرائس المجالس، ص 26. إنَّ هذه القصة الميثيّة تترجم عند الشّافعي إلى معقوليّة أصوليّة تضع صلبها الوظيفة النبويّة للوحي أصلاً في الاستدلال، وتترجم بعد ذلك في الفكر الجهادي إلى مفاهيم مثل: "الأمّة النّاجية"، إلى"منهج النبوّة"، إلى "خلافة على منهاج النبوة"، إلى "ملّة إبراهيم"، حيث محمّد وريث وحيد لهذه الملّة المقدّسة. فنحن نؤكد على أنَّ البنية في كلّ هذه النّصوص واحدة ترتبط بأصل فكرة الخلق نفسها. ويروي الثّعلبي عن قتادة عن ابن العباس أنَّ الله خاطب عيسى قائلاً: "لولا محمّد ما خلقت آدم ولا الجنّة ولا النّار، وقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه لا إله إلا الله محمّد رسول الله فسكن". ففي مثل هذه القصص التأسيس الميثي لأصوليّة الشافعي ودغمائيّة المؤسّسة الدينيّة عموماً. انظر الثّعلبي، قصص الأنبياء، ص25. وانظر قصّة مختلفة للميثاق الإلهي واستتباعاته في كتب التفسير مثلاً عند ابن كثير، التفسير، ج3، ص469.

57- انظر: المقدسي، ملّة ابراهيم، ص6.

58- عنوان المقال الأصلي:

The concept of Imamah (leadership): Imamah is From the Mellah of Ibrahim, Dabiq, n2, p20, https://archive.org/stream/dbq_7/DABIQ1#page/n9/mode/2up

نيابة عن بقيّة البشر[59]، فكأنّها أمّة التّاريخ المقدّس والعهد الأبديّ. وهو عهد تتحدّث عنه آيات القرآن[60]، وله في السّيرة والتّفسير قصص تغنيه وتفصّله وتثبته عبر السنّة الموروثة عن الأوّلين. وافتح أيّ كتاب من تلك الكتب فإنك واجد فيها هذه البنية نفسها متكرّرة بلا توقّف[61]. فهو ميثاق مقدّس فوق التّاريخ ضامنهُ الوحيُ والقرآنُ والسنّة وإجماعُ السّلف الصّالح، لذلك استمرّ هذا التمثّل منذ نشأت «حضارة النصّ»[62] حول النصّ وهو باقٍ ما بقي النصّ فاعلاً مركزيّاً قائماً بالدّور المقدّس نفسه في أذهان المسلمين.

فالمشكل كامن في رأينا في الحلّ القرآنيّ لخلق الشرّ تحديداً، لأنَّ التوحيد أجبر الله القرآني على تبنيّ الشرّ باعتباره خالقاً واحداً أحداً. وهذا التأصيلُ الأنطولوجي كان فوق قدرة الثقافة فيما بعد على الفكاك منه، لأنَّ الفكاك من هذا التمثّل يعني الإقرار بعكس التّوحيد. ولذا كان هوسُ الجهاديّين المعاصرين بعقيدة التوحيد هوساً مرضيّاً يكشف للمتأمّل خوفهم الكامن ممَّا أسميّه: انكشاف حقيقة الشرّ. وتلك هي الحقيقة الوحيدة التي تقوّض بنيان التّوحيد وتزعزعه من أسسه. ذلك أنَّ العورة الحقيقة هي عورة النّظام الديني نفسه. وتلك العورة تخفيها ورقة توت آنَ أن تسقط.

مشكلة الله الخالق أو في احتجاب الشرّ:

تبدأ مشكلة تصوّر الله الخالق ببداية قصّة الخلق نفسه[63]، أي بهذه الجملة القائمة على عمل قولي يفيد الأمر: «كن». ففعل الخلق استجابة للأمر الصّادر في الأزل بأن يكون الكون فكان. إنَّه خلق ألوهيّة وربوبيّة

59- انظر الشّافعي كيف يؤسّس أصول الفقه وما تستوجبه من مسؤوليّة فرديّة على سرديّة النّجاة الجماعيّة وما فيها من تناقض مع فكرة المسؤوليّة الفرديّة "وَوَعَظَهُم بالأخبار عمّن كان قبلهم، ممّن كان أكثرَ منهم أموالاً وأولاداً، وأطولَ أعماراً، وأحمدَ آثاراً، فاستمتعوا بخلاقهم في حياة دنياهم، فأذاقهم عند نزول قضائه مناياهم دون آماله، ونزلت بهم عقوبته عند انقضاء آجالهم، ليعتبروا في أنف الأوان، ويتفهّموا بجَلِيَّة التّبيان، ويتنبّهوا قبل رَين الغفلة، ويعملوا قبل انقطاع المدّة حين لا يُعتِب مذنب، ولا تؤخذ فدية» الشّافعي، الرسالة، ج1، ص13.

60- انظر مثلاً الأعراف7/ 172-174.

61- هذه السنة المتكررة بلا توقف والقائمة على مركزيّة النبوّة يعبّر عنها مثلاً هذا الحديث: "قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "(....) سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا" صحيح مسلم، كتاب الفتن، ج4، ص2216،

62- انظر ذلك في: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النصّ، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط4، 1998.

63- انظر كيف توظف فكرة الله الخالق في القرآن نفسه في سياق المباهلة بين النبيّ والجاحدين: "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ، وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ، فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ، أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"يس 71-83.

معاً[64]، لذلك يقوم العقد المقدّس على علاقة شرطيّة بمقتضاها لا يكون كون بلا فعل الكينونة نفسها ومصدرها الإلهيّ. وعندئذ فإنَّ الوجود استجابة لأمر صادر عليّ، لا يمكن بأيّ حال ردّه، وهذه الاستجابة مشروطة بالطّاعة منذ نشأتها. لذلك نجد في قصّة الميثاق المتطابقة مع فعل الخلق نفسه أصل كلّ البنى القائمة على الطّاعة، أي البنى الفقهيّة والسياسيّة والاجتماعيّة. وهذا الخلق بالكلمة أو لنكن أدقّ: بعمل الإنشاء اللّغوي هو خلق من عدم، ولذا كانت الكلمة أصلاً تتأسّس عليه أنطولوجيا العهد الذي سيكرّره المسلم بلا توقّف، فهو بتكراره الطقسيّ ذاك يكرّر الوجود الأوّل نفسه، أي يجدّد العهد ويتجدّد به، أي يوجد.

تلك هي مشكلة «الله الخالق»، فهي تصوّر قائم على مديونيّة مطلقة تجعل كلّ مدين لربّه لا وجود له خارج علاقة الدّينونة والطّاعة تلك[65]. ويتمّ التّعبير إذن عن الانتماء تعبيراً طقسيّاً بفعل القول نفسه، فمن جنس المشكل يكون الحلّ: وكما كان أصل فعل الدّينونة أمر الكينونة، فإنَّ عملَ القول دائماً هو ضامن العهد المقدّس الأزليّ: الكلمةُ هي العهدُ والكلمة كلمة الله في الأزل، وهذه الكلمة تتجدّد دورات دورات مع كلّ قوم ومع كلّ نبوّة، وهكذا فإنَّ وصول هذه الكلمة إلى العرب عشيرة محمّد الأقربين (المنذورين منذ البدء لهذه المهمّة المقدَّسة) جعلها مهمّة عربيّة إسلاميّة كونيّة وجعلها مهمّة فوق تاريخيّة، لأنَّ هؤلاء هم آخر حملة العهد (وأوّلهم حسب بعض الروايات الشعبيّة)، فإنَّ النّجاة الكونيّة ملقاة على عاتقهم وهم وحدهم آخر دورات التّاريخ الأرضي. وضمن هذا المنطق يتأسّس التّطهير بالسّيف جهاداً لا يُبقي شرّاً ولا يذر كفراً، يَفصل فصلاً بين الكفر والإيمان، لأنَّ أمّة الميثاق التي تختم الخلافة على الأرض هي أمَّة البدايات والنّهايات، وهي حاملة الكلمة الإلهيّة المقدّسة.

فكون الله خالقاً أعلى فذلك يجعله جامعاً للشيء وضدّه، فاصلاً الشيء عن ضدّه، فقد حتّمت عمليّة الخلق خلق الشيء وضدّه: النّور والضّياء/ الحياة والموت/ الأرض والسّماء/ البشر والملائكة/ التحت والفوق/ النّار والماء/ الدّاء والدّواء/ اللّيل والنّهار/ والهنا والهناك/...، إلى ما لانهاية له من الثنائيّات الضديّة المتصارعة

64- فهم ذلك الترابط بين الخلق والسّلطة سيّد قطب فعبّر عنه في سياق تفسير وظيفة الرسالات المبعوثة: "وهي لا تستهدف إثبات وجود الله سبحانه، إنّما تستهدف تقرير ربوبيّة الله وحده في حياة البشر، كما أنّها مقرّرة في نظام الكون، فقضيّة الألوهيّة لم تكن محلّ خلاف؛ إنّما قضيّة الربوبيّة هي التي كانت تواجهها الرّسالات، وهي التي كانت تواجهها الرّسالة الأخيرة. إنّها قضيّة الدينونة لله وحده بلا شريك، والخضوع لله وحده بلا منازع، وردّ أمر النّاس كلّهم إلى سلطانه وقضائه وشريعته وأمره. كما هو واضح من هذه المقتطفات من قطاعات السّورة جميعاً." سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، تفسير سورة هود، ص1846. وحين نعود إلى مجموع فتاوى ابن تيمية نلاحظ أنّ بداية المجلد الأول من توحيد الألوهيّة يقوم على هذه الفكرة بالذات: فكرة الربّ الخالق: ""الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ"، الْعَالِمِ بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" الَّذِي "يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" "وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" الَّذِي دَلَّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ أَجْنَاسُ الآيَاتِ" مجموع الفتاوى، المجلد 1، ص1.

65- يعتمد المقدسي على تفسير سيّد قطب لسورة هود في سياق تأصيل فكرة الصّدع بالحق (ملة ابراهيم، ص57)، وعند العودة إلى سياق التفسير الذي يعتمد عليه نجد سيد قطب يبني فكرة الصدع بالحق على فكرة الدينونة: "نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كلّ رسول وفي كلّ رسالة... دعوة توحيد العبادة والعبوديّة لله، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كلّ رسول: "قال: "يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره»، ولقد كنّا دائماً نفسّر «العبادة» لله وحده بأنّها «الدينونة الشاملة» لله وحده. في كلّ شأن من شؤون الدنيا والآخرة. ذلك أنّ هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي.. فإنّ «عَبَدَ» معناها: دان وخضع»، سيّد قطب، في ظلال القرآن، تفسير سورة هود، دار الشروق، 2003، ط32، ج4.

التي يمكن أن نلخّصها على سبيل المجاز لا غير في لفظ القوّة بالمعنى الرياضيّ، أي الجمع بين حركتي السّلب والإيجاب معاً. وقد اعتنى العرفانيّون بتحليل ما يسمّونه «استعارة خطاطة القوّة»[66]، وعلى ضوء تنظيراتهم يحلّل بعض الباحثين «كن» فيقول: «كن الخلق الأول تستجيب لهذه البنية الجشتلطيّة المنظّمة، الكاف هي المُعاني والنّون هي المُعارض، والواو هي القوّة، وكينونة الوجود هي النتيجة التي آل إليها تفاعل القوى»[67]. إنَّ هذا التحليل ذا الخلفيّة العرفانيّة يتقاطع مع تفكيكنا لـ«كنْ»، ويؤكّد بذلك افتراضنا الذي يحملنا على اعتبار تمثّل «الربّ الخالق» أصلَ مشكلة «جريمة القتل». فالخالق هو الربُّ، أي إنَّه المصدرُ والآمرُ، أي الشيءُ وضدّه، أي تلك هي «الواو» الكامنة في كنْ كما في التّحليل العرفانيّ أعلاه. إنَّها تلك قوّة/ حركة الكينونة القائمة على اللّبس: على الوجود والسّلب في الوقت نفسه.

فكلّ وجه من وجوه الضدّيات المتصارعة يعطيها الإنسان قيمة ما في سياق ما يمكن أن تكون تلك القيمة موجبة أو سالبة. وكون الله خالقاً للخير والشرّ يجعله خالقاً للصّراع الأزليّ بينهما، ذلك الصّراع الذي تمثّله قصّة الابتلاء بالشّجرة المحرّمة أفضل تمثيل، وتعبّر عنه فكرة العداوة التي نزل بها الإنسان إلى الأرض ليشقى فيها ويطلب التّوبة والنّجاة والعودة إلى جنّته بعد أن تكون حياته على الأرض اختباراً لاستحقاقه تلك الجنّة عن جدارة أو رحمة من ربّ عظيم. وفي هذا الإطار تتنزّل عداوة المجاهد للكفّار وللطّغاة وللمجتمع الذي يرفض دعوته بعد أن يكون قد دعاهم إلى التّوحيد والإيمان بسبيل الإرشاد واللّين. فإمَّا أن يلبيّ النّاس الدّعوة، وإمّا عداوة وقتالُ[68].

وقد بدأ الله بفصل السّماء عن الأرض بعد أن خلقهما، وبفصل اللّيل عن النّهار وفصل المرأة عن الرّجل وفصل الشّيطان عن الملائكة وفصل الإنسان عن الجنّة وفصل الأشياء جميعاً، ليكون الكون ويعمّ النظامُ. فهذا الربّ خالق وفاصل للأشياء، وهو جامع لقوى كانت موزّعة على الآلهة من قبلُ، وحتى حين

66- "تقوم خطاطة القوّة في تصوّر مارك جونسن وليونارد طالمي على تفاعل كيانين على الأقلّ: أوّلهما هو المُعاني (agonist) بلغة طالمي وثانيهما المعارض (antagonist)، وكلّ واحد منهما (المعارض والمعاني) يمارس ضرباً من القوّة ويميل إلى اتّجاه معيّن، اتّجاه نحو الحركة أو اتّجاه نحو السّكون. (...)، فهناك قوّة وقوّة مضادّة، والقوّة باعتبارها "شعاعاً موجّهاً" من الكيان الأوّل إلى الكيان الثاني، ونتيجة ينتهي إليها تفاعل القوى، وهذه الخطاطة تحكم جانباً كبيراً من نشاطاتنا في الوجود، كما تحكم نظام تفكيرنا، وفعلنا اللّغوي معجماً ونحواً وخطاباً"، محمّد الصّالح البوعمراني، السيميائيّة العرفانيّة، الاستعاري والثقافي، مركز النّشر الجامعي، 2015، ص128. ويحيل الكاتب على هذا المصدر في الهامش عدد 1 من الصّفحة 129 من الكتاب المذكور:

Talmy (Leonard), Toward a Cognitive Semantics, vol1, p466.

67- المصدر نفسه، ص129.

68- يعرّف المقدسي منهجه بالفرقان، فـ"ملة إبراهيم... فرّقت بين الآباء والأبناء، إذ هي الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والتي قال الله تعالى عنها في القرآن: "ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه" البقرة/ 130" المقدسي، ملة ابراهيم، ص11. ويقول كذلك: "فملة إبراهيم إذاً هي طريق الدعوة الصحيحة التي فيها مفارقة الأحباب وقطع الرقاب... أمّا غيرها من الطرائق والمناهج الملتوية والسبل المعوجة المنحرفة تلك التي يريد أصحابها إقامة دين الله دون أن يستغنوا عن المراكز والمناصب، ودون أن يغضبوا أصحاب السلطان.. أو يفقدوا القصور والنسوان والسعادة في الأهل والبيوت والأوطان، فليست من ملة إبراهيم في شيء"، المصدرنفسه، ص33. فمنهج الدعوة عنده يقوم على هذا الفصل العنيف البدئي ذي الوظيفة التكوينيّة.

نقارنه بالربّ التوراتي، فإنّا نجده أكثر تجريداً وتعالياً ممّا سبق للتّوراة رسمه لصورة الربّ الخالق. فهنا يكمن العنف في الخلق نفسه، ذلك العنف الذي يسميّه رينيه جيرار مقدّساً وبدئيّاً.

والطّواغيت في القرآن ليسوا آلهة أخرى، ولكنّهم من البشر المخلوقين الذين نصّبوا أنفسهم أنداداً للآلهة وظلموا الخلق وتعدّوا على حقوقهم[69]. ولا يختلف في هذا النصُّ القرآنيّ عن التّأويل الذي نجده عند المقدسيّ، ففرعون هو الطّاغوت، والمتجبّرون من أهل القرى الذين ظلموا أنفسهم هم الطّواغيت، وفي سياقنا الحالي الطّواغيت هم الحكّام والفقهاء الذين يساعدونهم بفتاويهم الكافرة حسب اعتقاد المقدسي، وهم كذلك كلّ الفواعل الذين يرفضون دعوة الإسلام التي يعتقد المقدسي أنّها دعوة الأبديّة. فالطّواغيت بشر من لحم ودم[70]. لذلك فإنَّ هذه الحركات الجهاديّة تجد في أنظمة الاستبداد ما يبرّر أفكارها ويغذّيها بالحقد والغلّ[71]. وهي تحمل في مضامينها رسالة خلاصيّة من الآلام التي يسبّبها القمع والتّهميش والفقر والاستبداد السّياسي. فكلّ هذه الآفات ترتبط بتصوّر للتّاريخ على أنَّ كلّ شروره وآلامه عقاب لجاحدي الرّسالة أو ابتلاء لصبر المؤمنين بها. فالله محارب للفرعون الذي تجبّر وهو محارب لكلّ جبّار أثيم، أباً كان أم ملكاً أم شيخ قبيلة. وتجلّى ذلك مرّات ومرّات متعاقبة من خلال ما قصّه من أنباء القرى التي هلكت في التّاريخ/ الدنيا بظلم أهلها وجبروت كبارها[72].

المباهلة والاستئصال بالقوارع:

في شهر مارس 2014، نشر المتحدّث الرسمي للدولة الإسلاميّة في العراق والشام أبو محمّد العدناني الشامي مقطع فيديو عنوانه: «ثمَّ نبتهلْ فنجعلْ لعنةَ اللهِ على الكاذبينَ»[73]، وقامت استراتيجيّة الخطاب فيه على التّذكير بأنَّ الله بعث محمّداً بالسيف رحمة للعالمين، أي التّذكير بأنَّ نجاة أمّة محمّد كانت بسبب تكليف محمّد بحمل السّيف وتعويض القوارع المهلكة بالجهاد والقتال، فالقتال رحمة ونعمة تستوجب الشّكر والحمد، وهو ما ابتدأ به الخطاب[74]. وتتمثّل وظيفة هذه الكلمة في إقناع المجاهدين القاعديّين الذين ارتبكوا بين الجبهة

69- المقدسي، ص22.

70- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

71- يعتبر المقدسي أنَّ تطهير واستئصال الكفر والشّرك مهمّة مقدّسة لا يخجل منها المؤمن: "نحن لا نتحرّج أبداً من القول إنّ ذلك مطلوب منّا أيضاً حال القدرة عليه في عهد الاستضعاف وغيره، سواء كان ذلك الصّنم تمثالاً أو قبراً أو طاغوتاً أو نظاماً أو غيره، حسب تنوّع الصّور واختلافها في كلّ زمان ومكان، وأقصد بذلك الجهاد والقتال وهو أعلى مراتب إظهار العداوة والبغضاء لأعداء الله»، المقدسي، ملة ابراهيم، ص48.

72- لقد قصّ المقدسي أنباء القرى في سياق شرحه منهج الدعوة الإبراهيميّة القائمة على الصّدع والحرب، انظر ذلك في الكتاب من ص43 وما بعدها.

73- هذا عنوان الفيديو، لكنّه عوين يوم 28/10/2017 ولم يعمل بسبب الرقابة على فيديوات التنظيم: http://bit.ly/1fLLead. لكنّه فرّغ على بعض المواقع كتابياً https://tawtheek00jihad00dawlah.wordpress.com وذكر في مقال طوفان المباهلة في العدد الثاني من دابق.

74- "الحمد لله القوي المتين، والصلاة والسلام على من بُعِث بالسّيف رحمة للعالمين". انظر الكلمة المفرّغة على الموقع المشار إليه في الهامش السابق.

وتنظيم الدولة وأربكتهم الفتاوى المتصارعة فأدخلت فيهم الشكّ والتردّد وما عاد الخط الذي من أجله قدموا للقتال واضحاً، تتمثل الوظيفة في إقناعهم بأنَّ القتال في صفّ تنظيم الدّولة هو الذي يؤدّي إلى النّجاة، وأنَّ تنظيم الدّولة هو الحقّ وبقيّة الفصائل العدوّة على باطل، ولمّا لم يتبقَ أمام شيوخ المنظّرين حجّة للإقناع، فقد كانت الملاعنة آخر الآيات على أنَّهم على حقّ ومن عاداهم على باطل. والملاعنة ليست اختراعاً لتنظيم الدّولة، ولكنّها سليلة ميث الميثاق الإلهي ووليدة سرديّات هلاك القرى.

وتمثّلت الملاعنة التي صدرت عن تنظيم الدولة ونشرت في العدد الثاني من دابق في ذكر التّهم التي وجّهت لتنظيم الدولة ثمّ التضرّع والشكوى إلى الله وطلب تدخّله المباشر لإظهار الحقّ، ولا يكون تدخّله في هذه المرحلة إلّا بهلاك الكاذب بالقوارع، ومن هنا كانت تسمية «مباهلة الطوفان» ويقول العدناني:

«اللّهم إنّي أُشهدك أنَّ ما ذكرته آنفاً ممّا قاله عبدك أبو عبد الله الشامي كذبٌ وافتراءٌ على الدولة، وإنَّه ليس من منهجها ولا تعتقد به، ولا تتقصّد فعله، بل وتنكر على من يفعله.

اللّهم من كان كاذباً، فاجعل عليه لعنتك، وأرنا فيه آيةً، واجعله عبرة.

اللّهم من كان كاذباً، فاجعل عليه لعنتك، وأرنا فيه آيةً، واجعله عبرة

اللّهم من كان كاذباً، فاجعل عليه لعنتك، وأرنا فيه آيةً، واجعله عبرة.

اللّهم كلّ من تآمر على الجهاد والمجاهدين؛ فردّ كيده في نحره، واكشف خبيئته، وافضح سريرته، واجعله عبرةً لمن يعتبر.

اللّهم سلّط عليه الأسقام والبلايا»[75].

يتتبع العدناني ما يسمّونه «منهج النبوّة»، وهو نهج كلّ الأنبياء المرسلين إلى أقوامهم لإنذارهم من العقاب الجماعي الإلهيّ. فكلّ إخلال بالميثاق الأزليّ يستتبعهُ تذكير وبعث نذير ينبئ بالهلكة الجماعيّة، ولذا فإنَّ العقاب الإلهيّ حتميّة تاريخيّة مستوجبة بضرورة العهد المقدّس، وهذه الهلكة ليست سوى ما يسميّه

75- المصدر نفسه.

المُفتون المنظّرون للقتال اليوم «عقاب عاد» أو «جزاء الاستئصال» أو «مباهلة الطوفان»[76]، ويمكن أن تسمّى بكلّ أسماء القوارع المثبتة في القرآن كالقمل والجراد والزّلزال والعهن المنفوش والحجارة من سجيّل وغير ذلك من أفانين العقاب الإلهيّ القرآنيّ، لكنَّ الواضح أنَّ استعارة الطّوفان ابتلعت بقيّة القوارع الممكنة وصارت لها رمزاً. وهو جزاء مرتبط برفض الآيات والمباهلة ارتباطاً ميكانيكيّاً. ويعدّ رفض الآيات اختراقاً للحظر واعتداء على حقّ لله وحدّ من حدوده.

وقد كانت المباهلة (أو الملاعنة) مرحلة من مراحل الدّعوة التي تتوّج كلّ رسالة تفشلُ في إقناع القوم، إذ حين ييأس النبيّ من هداية قومه يلاعنهم وتنزل عندئذ قوارع السّماء فتهلكهم بلا رحمة[77]. ولها آيات في القرآن منها آية تُسمّى آية المباهلة وهي الآية: 61 من سورة آل عمران «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ». وقد قيل إنَّها نزلت في نصارى نجران عندما اختلفوا مع الرّسول وتقدّموا إليه ليلاعنوه، ولكنّهم خافوا من علامات نبوّته فتراجعوا وصالحوه.

والمباهلة هي آخر الآيات التي تدلّ على نبوّة نبيّ ما وألوهة الربّ الذي بعثه برسالة التّوحيد، فالعقاب الجماعي ممثّلاً بالقوارع هو في هذا السّياق آية على وجود هذا الربّ، فهم لا يدركون هذه الحقيقة إلّا لحظة حدوث العقاب وتجليّه بصفة نهائيّة، ولذا كانت العقوبة خيراً محضاً، لأنَّها عينها تجليّ المطلق[78]. وأمَّا أخلاقيّتها، فتستمدّ من كون الأقوام التي تقبل باللّعبة تختار بنفسها وبمطلق إرادتها حتفها، إذ تغامر بوجودها نفسه بكلّ حريّة لمجرّد جحودها الآيات وتحدّيها «الحقيقة المطلقة». فهذا المعنى الأخلاقي يبرّر هذا العقاب

76- عقاب الطوفان هو عقاب قوم نوح، وهو العنوان الذي صدرت به داعش عددها الثاني من مجلتها دابق، انظر:

https://archive.org/stream/dbq_7/DABIQ2#page/n0/mode/2up

وفي هذا العدد الذي يحمل عنوان "الطّوفان" مقالان: الأول: إمّا الدولة الإسلاميّة أو طوفان نوح، المصدر، ص 5 والثاني يحمل عنوان: "طوفان المباهلة"، المصدر، ص20. وفي المقال الأول تذكير بدعوة نوح وقصته وعقاب قومه وتهديد بأنَّ العقاب الإلهي ينتظر القوم الذين يرفضون الآيات وإقرار بأنَّ القبول والانتماء إلى الدولة الإسلاميّة وحده ينجي من الطوفان.

77- الدّليل على عمق تأصّل هذا العنصر في وظائف البنية الميثيّة التي تحرّك الجهاديّين وجود الملاعنة في آخر كلمة ألقاها البغدادي بعد الهزائم المتكرّرة في الرقة وانحسار الدّولة وطرد الأهالي لها وقتل جنودها والتّنكيل بهم، فهو في آخر الكلمة يطلب من الله لعن الكفّار والأعداء ويدعوه أن ينصر جنده وأن يتمّ وعده وأن يتدخّل بقوارعه في التّاريخ فيهلك خاصة آل سعود ويمكن تنظيم الدولة منهم وينهي على أيديهم حكمهم. ولهذه الملاعنة بنية عميقة في الخطاب الديني عموماً والإسلامي خصوصاً. انظر ذلك في:

https://dawaalhaq.com/post/77153

78- إنَّ العقوبة الإلهيّة الجماعيّة (وهي التي يندرج ضمنها مفهوم "عقاب عاد") في منظور بول ريكور تندرج ضمن رمزيّة الشرّ نفسه، ولا يمكن أن نفصل مثلاً في النبوّة اليهوديّة التي حلّل أوجهاً منها بين غضب الرّب وأفعال الإنسان وبين الرعب من عقابه وشعور الإنسان بالذنب، إذ غضب القداسة مكمّل للشعور الأخلاقي الإنساني بالمسؤوليّة. انظر ذلك في

Paul Ricour, *Finitude et culpabilité,* T2, pp.66-69.

الجماعيّ غير المبرّر في المعقوليّة الفقهيّة الإسلاميّة الدنيويّة المبنيّة على تحميل العبد مسؤوليّة أفعاله فرديّاً لا جماعيّاً، فإذا بنا أمام هلاك جماعي لا يفرّق بين الطّفل البالغ والمجنون والمكلّف العاقل[79].

وآيات الله هي المعجزات التي تثبت وجوده ووحدانيّته، وهي كما هو معلوم متنوّعة (المائدة، عصا موسى، ناقة صالح، ... إلخ)، وغايتها في أصل الدين أن تثبت الوحدانيّة وتهدي النّاس للسّبيل المستقيم من أجل خلاصهم ورجوعهم إلى جنّة الخلد التي أهبطوا منها في البدء. وخُصّت أمّة محمّد في السّردية القرآنية بآيات القرآن، وتقوم هذه الآيات على سلسلة من القصص التي تُسمّى «أنباء القرى» والتي تسرد تقريباً الحبكة السرديّة نفسها: ففي كلّ مرّة يبعث الله نبيّاً لقرية فيطلبون دليلاً على ربوبيّة التّوحيد، فينبّههم النبيّ إلى أنَّ طلب الآيات أمر خطير فيسخرون منه، فيحقّق الله للنبيّ ما طلب قومه من الآيات فيجحدون تلك الآيات ويسخرون، ويسمّى هذا السياق بالمباهلة والملاعنة، وهو متكرّر في كلّ قصص أنباء القرى، وتنتهي كلّ مباهلة بعقاب جماعي لا يبقي ولا يذر يهلك الجميع نساء ورجالاً وكباراً وصغاراً ولا يُبقي على شيء. وهذا هو عقاب الاستئصال، لذلك وسمناه بأنّه إلهيّ وتطهيريّ وجماعيّ.

والمفارقة أنَّه مع مجيء الدّعوة المحمديّة، فإنَّ السرديّة تغيّر بعض العناصر، فآيات قريش من جنس الأقوال ومع ذلك رفضت قريش أن تؤمن بنبوّة محمّد وأن تصدّق آياته البيّنات واتّهمته بالسّحر والشّعر والجنون وعندئذ حقّ العقاب الجماعي، لكنّ الله أنجى أمّة محمّد لسبب يعلمه في الغيب أنَّها هي أمّة الشّهادة والميثاق، وعلى يديها تنتشر عقائد التّوحيد والألوهيّة[80]. وهكذا فإنَّ العقاب الجماعي لم ينزل بأمَّة محمّد رغم جحودها الآيات بل أنجاها الله وعوض القوارع التي تنزل من السّماء كلّف الله نبيّه بتعقّب الكفّار وإقامة كلمة الحق، وهكذا فقد صار النبيّ حاملاً للسّيف الذي عوّض قوارع السّماء، وصار الجهاد شكلاً جديداً لعقاب القوارع، لكنّه لم يكن بديلاً عن استئصال الجحود والنّكران، فحيثما توفّر النّكران سلّط السّيف على الرّقاب، وهكذا فإنَّ الجهاد في ميلاده الأنطولوجي دلالة جزائيّة جماعيّة عميقة لها صلة بمنزلة الإنسان المسلم وسرديّته التاريخيّة الميثيّة[81].

79- لنوضّح أنَّ معقوليّة الإسلام تودّ تأصيل مسؤوليّة الفرد ولكنّها هنا تصطدم بالحاجة إلى القبول بتأصيل الهويّة الجماعيّة، ولذا لا مهرب من الميث، فالميث وحده قادر على صهر الشّيء وضدّه، كالنّار التي تصهر الصّلب وتذوّبه، وذلك لإنشاء معنى أنطولوجي لتأسيس الأصول العقديّة ومفاهيم الأخلاق الضروريّة كالواجب والمسؤوليّة. وعندئذ فنحن هنا نذكر بأنَّ بعض الباحثين يعتقدون أنّ فكرة الجزاء الفردي ليست سوى تطوّر لفكرة الجزاء الجماعيّ، انظر ذلك مفصّلاً في: Freud, Totem et Tabou, p31.

80- انظر مثلاً: الرازي، مفاتيح الغيب، ج23، ص97. المصدر نفسه، ج24، ص176. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج4، ص173.

81- ولذا فإنَّ قتال السّيف هو كما في القرآن تعذيب إلهي بأيادٍ بشريّة: "قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ" النور24/ 14-20.

ونلاحظ أنَّ هذا المفهوم يتناقض في الظّاهر مع مفهوم الجزاء الفردي العادل، ومع ذلك بقي في السرديّة الإسلاميّة منذ نشأتها إقراراً واضحاً بإمكانيّة تدخّل الله في التّاريخ البشري أوّلاً عبر هذا التكليف المطلق بحمل سيف الاستئصال الذي عوّض قوارعه، ثمَّ عبر التدّخل ببعض القوارع كلّما لزم الأمر أو ببعض الجند السّماوي، والمهمّ في هذا العقد أنَّ على المسلم حمل السّيف مهما كانت العواقب وعلى الله التّوفيق والنّصر، وحتى إذا انهزم المسلم، فذلك قدر وتلك عبادة يثاب عليها ولا يحمّل المسلم نفسه بذلك مسؤوليّة في شيء من الدّم المراق والأرواح المسفوكة والنّساء والأطفال الذين لم يبلغوا بعد وليسوا حتى مكلّفين أمام الشّرع نفسه.

إنَّ رفض قريش التسليم بالوحدانيّة فرض آية السيف لا بمعنى الآية من سورة النور بل بمعنى أنَّ «النصر في القتال بالسيف» هو آية خارقة من آيات الله، وعدّت معركة بدر حدّاً فاصلاً أثبتت الربوبيّة والوحدانيّة. ودخل كثيرون الدّين الجديد دهشة أمام هذا النّصر واعتقاداً أنَّ ربّ هؤلاء نصرهم وهم قلّة حقيرة، ولذا فذلك النّصر العظيم هو علامة الربوبيّة. ومن هنا تستمدّ فكرة الجهاد كلّ دلالاتها المقدّسة وكلّ عمقها الأنطولوجي، فالجهاد بالسّيف ليس فقط واجباً أو مجرّد فرض أو بوّابة للجنّة والنّعيم فقط، بل هو أكثر من ذلك، إنَّه آية على وجود الله، و«الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى عَيْنِ الْمَطْلُوبِ، وَهِيَ آيةٌ وَعَلامَةٌ عَلَيْهِ»[82]، فالمقاتل يثبت في لحظة السّفك ذاته علامة تدلّ على هذا المطلق وتشير إليه[83]. إنَّه حين يقول كلمته بسيفه يحقّق وعدَ الله ويُجدّد ميثاقه ويوجد.

1. القربان الإله:

ما وراء «الولاء والبراء» في «ملّة إبراهيم»

لا يشذّ المقدسي وهو ينظّر للسلفيّة الجهاديّة عن هذه البنية الميثيّة/ الطقسيّة التي نجدها في القرآن والتّفسير وأصول الفقه وفتاوى ابن تيميّة وكلّ كتب السنّة الثقافيّة عموماً. ونلاحظ انتماء المقدسي لهذه البنية/ الرّحم منذ عتبات كتابه «ملّة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين..»، فلم يصدّره بإهداء أو بما شابه، بل

82- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مج1، ص48.

83- ويفكك عبد الوهاب المؤدب لفظ الشهادة فيقول: "ما الذي نشهد عليه عندما نموت في سبيل الله؟ ربما كنا نشهد على وجه الله، رمز الاصطفاء، وعلى حياة من النّعيم في الجنة خالدين فيها أبداً" أوهام الإسلام السياسي، ص143.

برسالة براء عنوانها: براءة[84]. ووجّهها إلى من سمّاهم الطّواغيت، وأعلن فيها أنَّه سيجاهدهم ويحاربهم، وأنَّ انتصار جهاده وحربه مقدّر، لأنَّ الله ناصر دينه وناصر مجاهديه. فحتميّة التّاريخ سائرة نحو امّحاء الكفر وانتصار كلمة الحقّ والدين والتّوحيد. نلاحظ إذن ومنذ العتبات أنَّ الكاتب يضع نفسه محارباً للطّواغيت محلّ الله ومهدّداً إيّاهم ومتبرئاً من أن يكون ممَّن يسكتُ عن ظلمهم. فتلك إذن مهمّة مقدّسة تواصل لما كلّف به الله الإنسان المسلم من حمل السّيف بدل القارعة لجعل التّاريخ خاضعاً لمشيئة النّجاة من الآخرة. وفي التبرؤ فصل بين الكفّار والمؤمنين يجدّد فصلَ الخلق الأوّل بالكلمة التي بها كان ما قُدّر له أن يكون. ففي الكلمة دائماً تلك القوّة المجدّدة الباعثة للحياة والمعبّرة عن القوّة الفاعلة أصل كلّ وجود.

إنَّ عتبة الكتاب إعلان حرب الكلّ ضدّ الكلّ، هي حرب الإيمان ضدّ الكفر والطّاعة ضدّ العصيان والنّور ضدّ الظّلام والملّة النّاجية ضدّ الملّة الهاوية في قرار الجحيم. فالتّاريخ يكتبه المؤمنون حلفاء الله، وهذه الحرب حرب أزليّة وكونيّة ومفارقة، لأنَّ أطرافها الإنسان وقوى الغيب، وفيها يتدخّل الله في التّاريخ لينصر جنوده، ولذا يمكن الحديث عن تاريخ يصنعه الإنسان صحبة القوى المفارقة، إنَّه تاريخ مقدَّس[85].

إنَّهما على طرفي ميزان: ليس المقدسي ظلّاً لله فقط ومعاوناً وخليفة في القتال، بل لعلّه يتّحد به ويتطابق معه بوصف هذا الإله آخر متعالياً، والمؤمن المجاهد بقلمه وقول كلمة الحقّ هنا هو ضدّ فانٍ مخلوق عبد، لكنَّه بهذه المهمّة المقدّسة يتطابق مع الكامل الخالق المتعالي الذي كلّفه وحمّله عذابه: عذاب الله وسنّته وكما تسمّى في أدبيّات التوحّش «السّنن الكونيّة»[86]، أي هذه المصائب النّازلة التي يساهم فيها المقاتلون وهذه الأعمال الحربيّة التي ليست في تمثّلات السنّة الثقافيّة سوى عناصر من تاريخ النّجاة لا أكثر. وبتماهي

84- "براءة:

إلى الطواغيت في كلّ زمان ومكان...

إلى الطواغيت حكاماً وأمراء وقياصرة وأكاسرة وفراعنة وملوكاً...

إلى سدنتهم وعلمائهم المضلين...

إلى أوليائهم وجيوشهم وشرطتهم وأجهزة مخابراتهم وحرسهم...

إلى هؤلاء جميعاً.. نقول

(إنّا براء منكم وممّا تعبدون من دون الله)

براء من قوانينكم ومناهجكم ودساتيركم ومبادئكم النتنة...

براء من حكوماتكم ومحاكمكم وشعاراتكم وأعلامكم العفنة". المقدسي، ملّة ابراهيم، ص1.

85- انظر ذلك في كتابه ملّة ابراهيم، وانظر أصول هذا التقسيم في: "في ظلال القرآن" لسيّد قطب مثلاً تفسيره سورة هود، وأصول ذلك في تفاسير القرآن مثلاً قارن مع تفسير الطبري للسّورة نفسها مع فارق يتمثّل في أنّ الطبري يعدّد الرّوايات التّي تثبت المقارنة بينها نسبيّة حقيقتها، في حين يختفي كلّ ذلك في تفسير قطب ويمسي الخطاب أكثر إطلاقاً وعموماً. لكنّها بنية سرديّة واحدة أصولها في النصّ القرآني.

86- انظر: أبو بكر ناجي، إدارة التوحّش، أخطر مرحلة ستمرّ بها الأمّة، مركز الدراسات والبحوث الإسلاميّة، ص94. وانظر التأصيل الذي قام به المودودي لمفهوم السّنن الكونيّة وربطه إيّاها بالإمامة في: أبو الأعلى المودودي، الأسس الأخلاقيّة للحركة الإسلاميّة، مؤسّسة الرّسالة، 1980، ص29 وما بعدها.

المجاهد بقلمه مع المهمّة الموكولة إليه من السّماء بصدع الطّواغيت الظالمين يكون قد تحقّق الوعد الإلهي وتجدّد الميثاق، وبتجدّد ذلك الميثاق تقترب هويّة هذه الأمّة المنشودة أن تكتمل، فهويّة هذه الأمّة الطّاهرة من كلّ شرّ لا تكتمل إلا بمزيد من الدمّ والقتل.

يتماهى المقدسي في كتابه «ملّة إبراهيم» مع نماذج ميثيّة تحرّكه، فيحلّ محلّ ربّه في موقع المحاربِ فكما لو كان يبتلعُ إلهه ويلتهمه. وهنا قد يفسّر ذلك بمنظور فرويدي بعمليّة قتل أب رمزيّة، لكنَّ التّأمّل في الأساطير المبنيّة على الالتهام قد يفكّ لنا لغز هذا الحلول مكان الربّ. فلعلّ أصلَ هذا الالتهام كامن في بنية الذّهن نفسه: في هذا الذّهن الذي تبنيه الاستعارات التي تقوم على خطاطات من بينها تلك التي شرحناها في عنصر الربّ الخالق وبيّنا أنَّها تنظم الوجود ولكنَّها تجمع بين نقيضين عبر كينونة قائمة على اللّبس. فأصلُ الالتهام كامن في البنية الذهنيّة التي اضطرت إلى خلق استعاراتها لتنتج معنى لوجود لا معنى له خارج الذهن البشريّ: لمَ الموتُ إذاً؟ ولمَ الحياةُ إذا كان عاقبتها الموت؟ ولمَ كلّ هذا الوجود؟ إنَّها الأسئلة الشقيّة التي يجيب عنها الدين ويجيب عنها الذّهن قبل ذلك بطبيعته الكارهة للفراغ المنتجة للمنطق والنّحو والموفّرة على الإنسان ألمَ الوحشة واللّامعنى، إنَّه الدّماغ نفسهُ ينتجُ حياته وموته. فلا غرابة إذن أن نرى معتقداً يؤدّي إلى أن يُقدّم الربُّ قرباناً على مائدة الألوهة نفسها: يقدّم قرباناً باسمه الأعلى ويحلّ المجاهدُ وجهاً له، ولكنَّه لا يرى عمليّة التّضحية بالإله الذي يزعمُ أنَّه يقاتلُ في سبيله، فإذا هو يضحّي به وبنفسه إذ يضحّي بربّه[87]. إنَّها علاقة بين طرفين جمعت بينهما في أوّل «كن» قوّة الوجود، فمصير طرفيْ العهد متعلّق منذ نشأة الميثاق بمصيريْهما معاً يحييان معاً ويموتان معاً، إذ الربّ وجه والحاجة البشريّة إليه عند المجاهد في سبيله قفاها، والميثاق هو المعنى المعلنُ الذي به يحيا المجاهدُ ويموت.

87- انظر تفصيل مفهوم القربان الإله في رسالة موس وهوبر في القرابين، ففيها تفسير لهذا المفهوم، وهما يقرّان فيها أنّ الأساطير التي تقصّ تقديم الآلهة القرابين تُنسى غالباً أصولها، وتبقى فقط الذكريات تحدّث عن صراع بين آلهة الظلام والضياء وبين آلهة السّماء والجحيم. وقد أصبح الإله القربان أسطورة من الأساطير المؤسّسة للملاحم الكونيّة. فيتفاعل الطقس مع الأسطورة التي نشأت منه. وتصبح بعد ذلك أسطورة مؤثرة في ذلك الطقس. من ذلك أسطورة ديونيزوس ذلك الإنسان/ الربّ، ابن البشريّة وابن الربّ الذي قُدم قرباناً ثمّ أعيد بعثه من جديد. فكانت قصّة قربانه تحدّث بالموت والحياة والخصب والتجدّد ووقف العنف وإرساء النظام ككلّ أسطورة من أساطير الأولين. وقد أثرت قصته في كلّ دين جاء من بعد. وقد أصبح كلّ قربان من بعد تكراراً وإعادة لذلك القربان الأوّل قربان الربّ.

Henri Hubert et Marcel Mauss, Une édition électronique réalisée à partir du livre: Mélanges d'histoire des religions. De quelques résultats de la sociologie religieuse; Le sacrifice; L'origine des pouvoirs magiques; La représentation du temps. «Essai sur la nature et la fonction du sacrifice.» (1899), (pages 1 à 130) Collection: Travaux de l'Année sociologique. Paris, Librairie Félix Alcan, 1929, 2e édition, 236 pages.Un article originalement publié dans la revue Année sociologique, tome II, 1899, pages 29 à 138.

http://classiques.uqac.ca/classiques/mauss_marcel/melanges_hist_religions/t2_sacrifice/sacrifice.htm, p70.

يدّعي المقدسي أنَّه يحارب الشّياطين والكفّار، ويستشهد منذ البداية بشعر لابن القيّم[88]، فكأنَّ نصّه المكتوب صدى الماضي وصرخته الأبديّة، إذ تتلاشى هويّة الفرد في هذه الهويّة المطلقة القادمة من زمن الميثاق المقدّس ومن السّماء، تكتب على الأرض تاريخ النّجاة لبني البشر المخلوقين. ولذا فإنَّ هذا الزّمن المطلق يُحكم قبضته على فكر المقدسي ويجعله حتّى أمام ما قد يستشعره من الفزع أمام هول العدميّة ثابتاً بمعتقداته، لأنَّها مرسومة في تاريخ أكبر منه له بدايات ونهايات في أمكنة وأزمنة مفارقة، وإذا به يعيش في سرديّة ميثيّة يجد نفسه فيها بطلاً حاكماً متعالياً على العاديّ، فيخلّصه ذلك من حدوده البشريّة ويخلّصه من قلقه ومخاوفه وشعوره بالعجز، لأنَّه أخيراً في حضن هذا الزّمن العجيب اللّانهائيّ المطلق الإلهي ناطق باسم مشيئة ربانيّة تلبّسته وتلبّسها فصارت له لباساً، وهو لها وجه، فلا يفترق الوجهان.

وعرض المقدسي في بداية كتابه المذكور اعتراضات خصومه من فقهاء السّلطة أو حتّى من رفقائه الإسلاميّين في السّجون التي حُجز بها، الذين يرون أنَّ تجربة الرّسول تنقسم إلى تجربته في مكّة ودعوته بالحسنى، وأنَّه لا يمكن عداء الأقربين والتبرؤ منهم إلّا بعد حدوث الدّولة الإسلاميّة، وأمَّا قبل ذلك، فالنبيّ أسوة في تحمّل العيش بين الجاحدين برسالته. ورفض المقدسي هذا الالتزام بتقسيم الآيات إلى مدنيّ ومكيّ، معتبراً أنَّ هذا التّقسيم قد يعطّل العمل بدلائل شرعيّة[89] معتمداً على السرديّة القرآنيّة في شمولها ومتشبّثا بأنَّ الأولى تفسير القرآن بالقرآن، وهو بذلك يحاول إحياء «الميثاق الإلهي» الأزليّ[90]. مؤكّداً أنَّ ملّة محمّد لا تخرج عن ملّة إبراهيم، مستخلصاً من قصّة النبيّ إبراهيم درس معاداته وقطيعته لأبيه وأهله لغاية التّوحيد، معتبراً أنَّ جوهر الدّعوة واحد، وأنَّ على المجاهدين أن يتبرؤوا من الطواغيت وجنودهم، ومن كلّ جاحد لرسالة الربّ التي يعتبر المقدسي نفسه ومن كان مثله حملتها بعد الأنبياء والرّسل والتّابعين.

ويضع المقدسي بهذا التّأصيل في القصص القرآنيّ السّابق لقصّة الدّعوة المحمّدية أسس عقاب الاستئصال. وهو الأمر الذي يتيحه له القرآن نفسه الذي يعيد المقدسي قراءته غير متقيّد بما ضبطته المؤسّسة

88- يقتطع المقدسي من نونيّة ابن القيم الشّهيرة أبياتاً في تأصيل الجهاد وتثبيته يضعها في تصدير كتابه (انظر الكتاب، ص1) وعند العودة إلى سياق تلك الأبيات من النونيّة نجد ذكراً للقتل والقربان، فانظر كيف يقدّم المجاهد المقتول قرباناً للتقرب إلى ربّه رغم أنّ أصل القربان في الإسلام تعويض الإنسان بالحيوان. والتأمّل في هذه الأبيات يؤكد أنَّ ما يحرّكها هو نماذج بدئيّة من بينها ما ذكرناه من ميث الإله/القربان:

«لأجـــاهدنّ عداك ما أبقيتني ... ولأجعـــلنّ قتالهـــم ديدانـــي
ولأفضحنهم على رؤوس الملا ... ولأفـــرينّ أديمهـــم بلســـاني
ولأكشفنّ سرائراً خفيـــت على ... ضعفـــاء خلقك منـهم ببيـــان
ولأتبعنّهم إلى حيث انتهـــوا ... حتى يقـــال أبعـــد عبادان
ولأرجمنّهم بأعلام الهـــدى ... رجـــم المريد بثاقب الشهبان
ولأقعدنّ لهـم مراصد كيـدهم ... ولأحصرنهّـــم بكلّ مكـــان
ولأجعلنّ لحومهـــم ودماءهـــم ... في يوم نصرك أعظم القربان"

ابن القيم، النونية، الكافية الشافية، مطبعة ابن تيمية، القاهرة، ط2، 1417هـ. ص176.

89- المصدر نفسه، ص7.

90-المصدر نفسه، ص4.

الفقهيّة منذ الشّافعي من علوم ومن ضوابط، فهو يتحرّر من تلك الضّوابط ملتزماً بالمقاصد الكبرى التي تلخّصها بالنّسبة إليه عقيدة التّوحيد. بذلك يضع أسس العداء داخل المجموعة المسمّاة مسلمة فيشرّع للفصل داخلها بين مصدّق بالرّسالة وجاحد لها، فأمَّا المصدّقون بها، فهم الذين يطبّقون شرعها وتعاليمها ويلتزمون بما أمر الله، وأمَّا الجاحدون، فهم الطّواغيت: أي الحكّام وأعوان الدّولة جميعاً العاملون في صلبها لحماية أمنها وتسييرها والمثقّفون والقضاة وواضعو القوانين والملتزمون بتلك القوانين وكلّ من يساهم في تواصل الدّولة بشكل من الأشكال. كلّ هؤلاء جاحدون يجب التبرؤ منهم وتكفيرهم ومحاربتهم واستئصالهم بالجهاد، كما استأصل الله الجاحدين من أهل القرى وأنقذ المؤمنين منهم.

2. موقف المقدسي من فتوى عاد ووخزة الرّعب:

حدود الجنون العقلُ وحدود العقل الجنون

في قلب القتال الدّائر بين المقاتلين/ الإخوة على الأرض السوريّة كتب المقدسي مقالاً عنوانه: «قتل عاد وقتال الاستئصال بين الرّغبات الدوليّة وشيخ الإسلام ابن تيميّة»[91]. وقد نبّه فيه إلى أنَّ تكفير داعش واستئصالهم بقتال عاد غير جائز شرعاً، لأنَّهم أهل توحيد، ولأنَّهم حتّى إن كان قادتهم غلاة، فإنَّ قواعدهم يتّبعون منهج النبوّة المحمود، وأشار إلى أنَّ قتال الاستئصال صار بمثابة «الرّغبات الدوليّة» حتى غدا الأمريكان يطلقون على مقاتلي الدّولة لفظ «الخوارج» الذي يطلقه المقاتلون المسلمون على أعدائهم ليجيزوا قتلهم. وقد نبّه حينئذ إلى أنَّ فتوى «قتال عاد» لن تقف عند حدود الدّولة الإسلاميّة، «بل ستتعدّاهم إلى كلّ جماعة تتمسّك بمطلب تطبيق الشّريعة وترفض الذّوبان في المشروع الصّليبي والطّاغوتي».

لقد انتبه المقدسي إلى الدّور الذي يقع فيه المُفتون بالقتل، وحاول أن يُثبت أنَّ مقاتلي الدّولة ليسوا ممّن ينطبق عليهم وصفُ الخوارج، وإن كان من بين قادتهم من ينطبق عليه ذلك الوصفُ، والمطّلع على مقاله هذا يكتشف عمق التّناقض الذي يقع فيه التنظير للاستئصال على خلفيّة سياسيّة[92]، إذ تغدو فتنة مدمّرة لا تبقي ولا تذر. ولعلَّ المقدسي انتبه إلى ذلك المآل الموحش الذي ينتظر الجهاديين جميعاً من الجهات المختلفة،

91- انظر ذلك النصّ على هذا الرابط الذي عوين يوم 20/10/2017

https://tlmith.blogspot.com/2016/03/blog-post_40.html

92- يقول المقدسي: "استعمله هؤلاء جميعاً استعمالاً سياسيّاً بعيداً كلّ البعد عن الاستعمال الشّرعي طبعاً؛ ليحققوا مآرب لهم ويقطفوا ثمرات خبيثة؛ منها تسويغ قتل خصومهم المعنيّين قتل استئصال؛ تُستدعى له أحاديث وصفت قتلهم بـ(قتل عاد) أو (شر قتلى تحت أديم السماء)، وليطبّق عليهم كلام شيخ الإسلام الذي ميّز فيه قتال الخوارج المارقين عن قتال البغاة المتأولين؛ وهذا مأرب أوّل لهم مهمّ". انظر ذلك في مقاله: https://tlmith.blogspot.com/2016/03/blog-post_40.html

ولعلّه حرّكته مصالح أو عاطفة ما مع تنظيم الدّولة الإسلاميّة[93]، ولعلّه فقط كان ملتزماً بـ«منهج النبوّة» وتعاليمه التي ضُبطت منذ الشّافعي[94]. لكنّنا نعتقد أنَّ الفزع أمام هول العدميَّة حرّك عقله ليحاول أن يميّز بين الدّفاع المشروع عن الذّات والنّفس ومصالحها وبين الدّخول في حرب استنزاف لا رابح فيها بين المتقاتلين سوى ضياع الحلم الذي يحملونه من شتّى جبهات القتال. إنَّه الفزع أمام جنون يدفع بالصّنو لقتال صنوه، كأنَّهما توأمان، أو كأنّها النّفس في قتال مع نفسها، فلو رسمنا جدولاً لنلخّص الأمر، لوجدنا تطابقاً بين طرفي الحرب والقتال:

	مجاهدو القاعدة	**مجاهدو تنظيم الدّولة**
السياق:		
حرب الإخوة:	حرب مقدّسة/ واجب ديني	حرب مقدّسة/ واجب ديني
الشّعار:	إقامة حدّ الحرابة	إقامة حدّ الردّة
الغاية:	التّطهير/ قيام الخلافة	التّطهير/ قيام الخلافة
الوسيلة:	القتال/ الفتاوى التي تبيح الموت/ «الشهادة»	القتال/ الفتاوى التي تبيح الموت/ «الشهادة»
المحاربون:	من جنسيات مختلفة، يحملون العقائد نفسها	من جنسيات مختلفة، يحملون العقائد نفسها
القادة:	أسماء متشابهة/ امتدادات مشبوهة	أسماء متشابهة/ امدادات مشبوهة
النّتيجة المتوقّعة:	تصفية الخصم والقضاء عليه	تصفية الخصم والقضاء عليه

فما الفرق في مستوى الخطاب الذي ينتجه هذا الفكر بين هؤلاء وهؤلاء؟

إنَّ موقع المقدسي بوصفه تابعاً لتنظيم القاعدة أوجب عليه الالتزام بما سبق له أن وقّع عليه من فتوى جواز قتال من يسمّونهم «البغداديين» نسبة إلى البغدادي زعيمهم، وقتالهم قتالاً يطهّر الأرض منهم فلا يبقي لهم أثراً. ولذا كان موقفه متذبذباً متردّداً بين إجازة القتل وعدم إجازته. وقد أعلن أنَّه خاف ردود فعل أصحابه من إصدار مقاله التوضيحي عن فتوى عاد. لأنَّه خشي أن يظنّوا أنَّه يبرّر لقادة التّنظيم فظاعاتهم وما فعلوه

93- اعتبر المقدسي أنَّ فتوى الاستئصال تخدم مصالح الأنظمة الكافرة، ونبّه من أنَّ هذه الفتوى قد تمحو كلّ المشروع الجهادي الإسلامي: "يجب أن يعلم أنَّ فقهاء الجحور والقصور وطواغيتهم لن يتوقفوا في تنزيل فتوى الاستئصال وتوابعها على جماعة الدّولة؛ بل هذه مرحلة وسينتقلون بعدها إلى كلّ من يرفض الذّوبان في المشروع الأمريكي الذي سيفرضه الدّاعمون؛ ابتداء من جبهة النّصرة وجند الأقصى وأمثالهم ممّن يصرّون على أنّ غاية جهادهم تحكيم الشّريعة، وقد بدأت معالم ذلك تظهر على أرض الواقع ومؤامراتها تفتضح قبيل نشر هذه الكلمات". المصدر السّابق نفسه.

94- ضبط الشّافعي في كتابه الأمّ في باب قتال الردّة والبغي شروط هذه الحروب بين المسلمين، وقد استمدّ فتواه قياساً على ما روي عن علي بن أبي طالب: "وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا رَأْيَ الْخَوَارِجِ وَتَجَنَّبُوا جَمَاعَاتِ النَّاسِ وَكَفَّرُوهُمْ لَمْ يَحْلِلْ بِذَلِكَ قِتَالُهُمْ لِأَنَّهُمْ عَلَى حُرْمَةِ الْإِيمَانِ لَمْ يَصِيرُوا إلَى الْحَالِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقِتَالِهِمْ فِيهَا، بَلَغَنَا أَنَّ عَلِيًّا -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- بَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ إذْ سَمِعَ تَحْكِيمًا مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ لَا حُكْمَ إلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، لَكُمْ عَلَيْنَا ثَلَاثٌ: لَا نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرُوا فِيهَا اسْمَ اللَّهِ، وَلَا نَمْنَعُكُمْ الْفَيْءَ مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلَا نَبْدَؤُكُمْ بِقِتَالٍ."

بجند القاعدة المجاهدين أيضاً في سبيل دولة الخلافة الشرعيّة. ولعلّ ما يبرّر ذلك التردّد هو رغبة في الحياة وإدراك لهول وخطورة الدمّ حين يتمّ استسهاله فيجلب اللّعنة والدّمار. لكنَّ إدراكه الدّاخلي للفزع الذي يسبّبه قتال الصّنوين لم يؤثّر في نتائج معتقداته الجامدة، ولم يحمله على مراجعة مسلّماته التي نجده قد شرحها وعبّر عنها في مواضع أخرى ككتابه «ملّة إبراهيم».

وقد حاولنا التطرّق للنّماذج الأصليّة التي تحرّك فكره من خلال كتابه المذكور، وفهمنا مصدر عقم موقفه من فتوى عاد، وعدم قدرته على اتّخاذ موقف حاسم من العدميّة باسم الدّين ومن الإفتاء بالموت حدّ الفناء، رغم شعوره الواضح بالفزع الذي حرّكه فيما حرّكه ونبّهه إلى خطورة فتوى الاستئصال. فالدائرة الميثيّة/ الطقسيّة التي يدور فيها في حلقة مفرغة تجعله لا يتفطّن إلى أنَّ الفكرة نفسها التي يفزع أن تقضي على كلّ المجاهدين هي نفسها الفكرة التي وضع هو بنفسه أسسها ودعا إليها واعتبر أنَّها مهمّة المسلم الأخير الذي يطهّر الأرض ويُتمّ دعوة الأنبياء والمرسلين. وهي فكرة متفائلة تعد دائماً بالتجدّد الدّائم، وإن كان بعد موت، ولذا هي فكرة خطيرة طقسيّة تحمل بعثها في موتها، ونحيل على مرسيا إلياد للتّعمق في جملة الرمزيّات التي تحملها فكرة التجدّد الأبدي من رماد المحن والنّار والحرب[95].

الخاتمة

في ضرورة نقض العقد الإلهي

انطلقنا في المقدّمة من عمليّة وصف للواقع كما تمثّلناه من خلال ما نقلته إلينا وسائل الاتّصال الحديثة عبر الشّاشات وعبر الفضاء الافتراضيّ والصّحف والكتب، وحاولنا عرض الذي استقرّ في تصوّرنا ممَّا شاهدناه وقرأناه وسمعناه، وحاولنا التجرّد عن الحكم السياسيّ أو الأخلاقي، فالمشهد بالنسبة إلينا تلخّصه ترسيمة «الحرب المقدّسة»، بغض النّظر عمَّن هو الجاني ومن الضحيّة. فبحثنا هذا ينطلق من ملاحظة وعرض مشكلة أخلاقيّة جوهريّة تتعلّق بسؤال: شرعيّة الحرب المقدّسة وشرعيّة القتل. ولاحظنا أنَّ القتال الدّائر بين الفصائل السّلفيّة قتال يندرج ضمن نوع مخصوص من الحرب هو «الحرب الأهليّة» التي تغلّف بالقداسة لتصبح «حرباً مقدّسة»، ففضلاً عن اعتقادنا أنَّ كلّ البشر إخوة، فكلّ قتال في الأصل قتال بين الإخوة، فإنَّ ما يميّز قتال الجهاديّين المتصارعين في سورية مثلاً أنَّه ناشب بين طرفي صراع ينتميان إلى الدّائرة اللّغويّة والدينيّة والعرقيّة نفسها، بل إلى السنيّة نفسها، والمنهج نفسه المنتج للمعنى وللمؤسّسات الاجتماعيّة/ الدينيّة.

95- M. Eliade, le Mythe de l’Eternel retour, Archétypes et répétition, p14.

لذلك بدأنا برسم بنية خفيّة للتطرُّف وللحرب المقدَّسة؛ تبدأ أوّلاً بعرض المشكل نفسه المتمثّل في «قتل الأخ» والذي يسميّه السلفيّون جميعاً «قتل المسلم»، وقد بحثوا عن شرعيّة لذلك القتل فعادوا إلى نصوص البدايات حيث وجدوا ما يلزمهم لما سميّناه إخفاء الدّم على القميص. فشرعيّة القتل وظيفتها الأساسيّة أن تزحزح الشّعور بالذنب وأن تخفي الجريمة ولا يكون ذلك إلّا بإخلاء الجاني من مسؤوليّة الفعل والذّنب. وانطلقنا فيما بعدُ نبحث كيف تمّ بناء تلك المسؤوليّة الأخلاقيّة وكيف تمّ إخفاء الذّنب وطمس معالم الشرّ، فإذا بنا أمام ميث متحكّم في العقل الجهادي والعقل الدّيني عموماً، وما من فرق إلّا في درجات التأويل: إنَّه ميث الميثاق الإلهي. ولاحظنا أنَّ هذا الميث له وظائف تحدّثنا عنها في مقالنا في حدود الله[96]، وعدنا نفصّل الحديث باعتبار الاستئصال تابعاً لحدود الله (حدّ الردّة/ حدّ الحرابة). وقد نبّهنا هنا إلى أصل المشكل في هذا الميث وكونه يتعلّق بتمثّل «الخلق»، ففي لحظة الخلق وفعل الخلق ووسيلة الخلق وغايته وفي جمع الخالق بين الخلق والربوبيّة ممثّلة في هذا الخلق القولي بفعل الأمر «كنْ» الصّادر في الأزل تمام المشكل، ولسنا هنا أمام خاصيّة إسلاميّة، بل هي كينونة متحقّقة في ما سبق الإسلام من أساطير الخليقة السّابقة حتّى للدّيانات التوحيديّة التي ترتبط بأساطير التدمير والهلاك، باعتبار أنَّ لتلك الأساطير وظيفة تجديديّة تكوينيّة[97].

إنَّ الالتباس في عمليّة الخلق مولّد للعنف البدئي المقدّس السّابق لوجود المجرم وضحيّته نفسيهما، أي السّابق للإنسان، فكأنَّ الشرّ سابق، وكأنّ الشرَّ هو الخير، وكأنَّ العنف حتميّ، لأنَّه ارتبط بالوجود نفسه. ولذا كان صعباً على البشريّة تركيز مبدأ المسؤوليَّة، لأنَّ طبيعتي الحريّة والحتميّة متداخلتان، ولأنَّ العقل مهما فعل ليقنع نفسه أنَّ مبدأه حقيقيّ، فإنَّ مبدأه يظلّ متخيّلاً.

لذا كان بحثنا في عنصر المباهلة والعقاب أساساً عن المنطق الميثيّ الذي به تحدّدت مسؤوليّة الذنب في الثّقافة الإسلاميّة، بدءاً بالنصّ القرآني وانتهاء بتطبيقات الجهاديين ودابق والفتاوى المعاصرة، وغير ذلك. فإنَّ المباهلة والجحود هما أصل عدالة العقاب، ولذا كان القتل والموت والهلاك والألم نتيجة لسبب موجود في أصل فاعله مستوجب على فعله بضمان التّذكير والإنذار السّابق والدّعوة. فأصل الشرّ كامن في أفعال النّاس وفي تخلّيهم بمحض إرادتهم عن العقد، فيتمّ تحميلهم المسؤوليّة بهذا التخلّي الحرّ ويتمّ حجب مسؤولية الله الذي هو خالق للشرّ في البدء، وتدانُ الحريّة لأنَّها سببُ رفض الدعوة وجحود الآيات، وعندها يُضحَّى

96- انظر زينب التوجاني، حدود الله، ضمن: مفهوم تطبيق الشريعة في فكر دعاة الإسلام السياسي، مقاربة نقديّة، عمل جماعي، تنسيق: أنس الطريقي، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2015.

97- يشرح ذلك مرسيا إلياد مثلاً وهو يتحدّث عن علاقة الشعب اليهودي بربّه وتجدّد عهده به بتجدّد التهلكة والكوارث التي تذكر الشعب بآيات الرّبّ، وهو الأمر الدالّ على أنَّ ميث الهلاك الجماعي وارتباطه بالاستئصال ليس خاصّاً بدين المسلمين، بل هو تابع للبنية الميثيّة/ الطقسيّة:

«Chaque fois que l'histoire le leur permettait; chaque fois qu'ils vivaient que de paix et de prospérité économique relatives; les hébreux s'éloignaient de IAYVE et se rapprochaient des Ba'als et des Astartés de leurs voisins; seules les catastrophes historiques les remettaient dans le droit chemin en ramenant de force leur regards vers le vrai dieu» Eliade; *le mythe de L'eternel retour*; p152.

بالحريّة مبدأ للتأصيل ويرفع مبدأ الطّاعة والعبوديَّة. عندئذ ينكشف لنا قلق البنية الاجتماعيّة التي تحتاجُ إلى تركيز مبدأين متناقضين: المسؤوليّة الفرديّة والمسؤوليّة الجماعيّة في الوقت نفسه، أي الحريّة وحدودها، وليس رسم ذلك سهلاً.

حتّى لا يأكلَ المسلمُ رأسه:

من المستحيل أن يكون (أ) هو (ب)، أو أن يكون الشيء هو نقيضه؛ ولذا فمن تمام المنطق ألّا تتمكّن السنيّة الإسلاميّة التي قامت على «التّوحيد» من تركيز مبدأي المسؤوليّة الفرديّة والجماعيّة في الوقت نفسه، وأن توفّق بين فكرتي العبوديّة المطلقة لربٍّ خالق للخير والشرّ على السّواء والقدرة على تحمّل مسؤوليّة الأفعال ونتائجها الوخيمة. فهما مبدآن لا يلتقيان في جدول منطقي واحد. ولذا كان لا بدَّ من التركيب بين العنصرين المتناقضين والتّضحية بأحدهما فيُلتهم، ويُمسي في الدّاخل، ويخرج الضدّ إلى العلن، ويصبح في الخارج، مثل رحم يخفي جنيناً فهما اثنان، أو مثل ربّ يأكل أولاده صغار الآلهة المزعجين، أو مثل ذئب يلتهم ليلى، تلك هي بنية الشيء وضدّه، بنية الصنوان/ اللذين لا يلتقيان، فيلتهم أحدهما الآخر فيه.

وقد كشفنا في العنصر الرّابع من خلال نصوص المقدسي كيف وصل الأمر بالجهادي إلى التقرّب بنفسه لنفسه، وهذه عمليّة مطابقة للتقرّب بالله نفسه، يحرّكها نموذج شرحه موس في رسالته في القربان، هو نموذج به يفسّر مبدأ الدين نفسه أي القربان الإله، فعلى المذبح نفسه الذي يموت فيه المجاهد يسقط الله قرباناً، فكأنَّ الجهادي كما يقول المثل العاميّ التونسيّ المعبّر جداً في هذا المقام: «يأكل رأسه». فهي عمليّة التهام الذّات للذّات وسقوط في العدميّة القصوى. إنَّه يصارع صنوه، ويموتان لأجل ما يتوهّمان أنَّه خارج ذاتهما، وهو في الداخل يحركهما ليولدَ ويبرزَ، ويكون في لحظة سقوطهما معاً بروزه، فموتهما شهادة على هذا الذي في الداخل، لكنَّها شهادة قصوى، لأنَّه ما إن يُرى بالعين، حتّى يغيب، لأنَّه في نهاية الحاملِ نهاية المحمولِ، فالذي في الداخل لا يحيا إلّا بين ضلوع المعتقد به. وهكذا فإنَّ كلَّ شهيد يشهد فعلاً على هذا الذي يحمله، ولكن في لحظة الشهادة القصوى الغياب الأبدي، وهي دورة تتجدّد مع كلّ شهيد جديد.

ومن تمام المنطق ألّا يقبل العقل هذه الوضعيّة القصوى التي فيها تمسي العدميّة تمام المعنى، ويُمسي وجود الإنسان مستوياً مع عدمه. إنَّ المنطق الذي يحرّكه البقاء في بُعده البسيط الطبيعي والغريزي لا يقبل ذلك، ولذلك اكتشفنا في العنصر الخامس وخزة الفزع التي أصابت المقدسي فتراجع عن فتواه وتردّد، لكنَّه حتّى عندما انكشف أمام عينيه رعبُ العدميّة التي وصل إليها فكره ذو المنطق الميثي-الطقسي الذي يتحكّم به، فإنَّه لم يتمكّن من الإفلات من قبضة البنية المغلقة والدغمائيّة، لأنَّه لم يتمكّن من مراجعة موقعه مؤولّاً، ولأنَّ طبيعة الفكر الميثي أنَّه عقيم حين يصبح موضوع ذاته، ويكفّ عن أن يكونَ شكلاً للعقل.

نستنتج بعد الرّبط بين هذه العناصر أنَّ العقل الجهادي السلفي عقل تامّ الشّروط، تحرّكه بنية منطقيّة لا عيب فيها في ذاتها، وقد يسميّها البعض «الذّاكرة» ويعتبرها «مستودعاً أو مخزناً أو خزّاناً أو خزانة أو أرشيفاً تودع فيه الأمَّة وثائقها وما تريد حفظه والاحتفاظ به»[98] ولكنَّ تلك الآلة المنتجة لهذه الهويّة الفرديّة/ الجماعيّة، كما شرحنا في عملنا، تتحوّل إلى سياج دغمائي حالما يتورّط الإنسان في تصديقها والعمل بها عملاً حرفيّاً. فهذه البنية المنطقيّة/ الميثيّة مجرَّد آليّة للعقل ليفكّر بها ولينتج المعنى والأصل، إنَّها منشأ مبدأي الواجب والمسؤوليّة، لكنَّ أخذ المؤسّسة الفقهيّة والسنيّة الإسلاميّة لها على محمل الجدّ وعدم إدراك كونها مجرّد آليّة للعقل، هو أصل تحوّلها إلى مشكل.

إنَّنا نقترح هذه القراءة التي انطلقت من المبدأ الذي أقرّه دوركهايم بأنَّ الظواهر الدينيّة أشياء، وأنَّها بُنى اجتماعيّة[99]، ونعتقد أنَّ السير في هذه الطريق بمثل هذه القراءات قادر على حلّ المشكل الذي انطلقنا منه، أي الشرعيّة الدينيّة التي تُخفي بشاعة قتل الأخ. فما تخلصّت الثقافة الغربيّة من عصور ظلماتها إلّا بمثل هذه المناهج التي تقطع قطيعة كليّة مع المفارق، وتقتضي أنَّ الديني منتج للعقل ومؤسَّسات المجتمع.

لكن ما نشكّ في إمكانية حلّه هو الإشكال العويص التّالي: هل سيوقف نزع الشرعيّة الدينيّة عن فعل القتل التهرّب من الذّنب والمسؤوليّة؟ بمعنى أنَّ الثّقافة الغربيّة فكّكت الأصول الأخلاقيّة للشرّ لكنَّ حامليها اقترفوا بعد ذلك التفكيك أقذع الشّرور قتلاً ونهباً للحقوق البشريّة باسم الديمقراطية تارة أو محاربة الإرهاب طوراً آخر. فأقذع الشّرور ليست تلك التي يقترفها الجهاديّون وهم يعتقدون أنَّهم يقتلون مأمورين، بل هي تلك التي يقترفها من يقتل بدم بارد.

98- انظر تفصيل ذلك في: عادل خضر، في الصورة والوجه والكلمة، مقالات ميديولوجيّة، الدار التونسيّة للكتاب، 2015، ص12.

99- بالنّسبة إلى دوركهايم يمكن الرّجوع إلى كامل آثاره، فعمله يندرج ضمن التّأكيد على هذه الفكرة التي تعتبر أنّه يمكن اعتبار الظاهرة الدينيّة شيئاً. ونفهم هذا الإقرار بالمعنى الذي شرحه عادل خضر إذ يقول: "كلّ الرموز على سبيل المثال توجد بالصّور وفي الصّور التي جعلت لتمثّل شيئاً آخر، (....) وتصنع هذه الصّور بما يتمتّع به الخياليّ من قدرة على أن يجعلنا نرى في "شيء ما" ما ليس فيه، أو شيئاً آخر، أو نراه على غير ما هو عليه. (...) إنَّما الخياليّ الذي يعنينا هو هذا الابتداع الغامض الذي لا يتحدّد ولا ينبي ولا يتوقف للوجوه والأشكال والصّور. وانطلاقاً من هذه الوجوه والأشكال والصور فقط يمكن الحديث عن "شيء ما" أو "الواقع" بوصفه ابتداعاً من مبتدعات الخياليّ". انظر عادل خضر، في الصورة والوجه والكلمة، مقالات ميديولوجيّة، الدار التونسيّة للكتاب، 2015، ص7.

ليس هذا دفاعاً عن القتلة مهما كان موقعهم، أيقتلون لأجل الربّ أم لأجل الثروة والسّلطة أم فقط للتّسلية وقتل الوقت، لكنَّه تنبيه لحدود البحث العلميّ أمام الشرّ: إنَّ المشكل الحقيقيّ بالنّسبة إلينا بعد هذه المحاولة في تفسير منطق الاستئصال المختفي وراء خطابات التطرّف والتّكفير والتّفجير ليس «القتل المقدَّس»، فسيأتي اليوم الذي تفكّك فيه السنيّة الإسلاميّة أغلالها الدغمائيّة لترى السّياج الذي يأسرها، وليس نصيّ هذا ونصوص غيري سوى انفلاتٍ من العقال، فهذا الكسر ضرورة طبيعيّة لتتنفّس بنا ثقافتنا، وحتّى لا يأكل المسلم رأسهُ، كما قلنا وكما يقول مثلنا البليغ، ولكنَّ المشكل الذي لا نرى له حلّاً هو هذا الشرّ عينه الذي منه تغذو الرّغبة في الاستئصال عنيفة مدمّرة. فما أمرَّ حيرة العلم وهو يكتشف عجزه أمام الشرّ المحض، أي أمام المشكل عارياً من كلّ غطاء أخلاقي: قتلُ الأخ!

إنّنا نقترح أن ننقض العهد المقدّس الذي يغطيّ وجه الشرّ، وحينئذ سينكشف لنا الشرّ عارياً، ولم يبقَ على الإنسان العاقل، في تصوّرنا، سوى أن يواجه مأساته بكامل شجاعته وكبريائه: حقيقته الحيوانيَّة منزوعة القناعَ[100].

100- يعتقد مرسيا إلياد أنَّ فكرة الجنّة هي تلك التي كان فيها الإنسان في الفترة الجليديّة، حيث لم يعرف شرّاً ولا خيراً، وكان يعتمد تماماً على الصّيد، ويحيا في زمن ذهبيّ جاهلاً معنى الشرّ، ويفسّر أنَّ الاستراليين حملوا معهم تلك الذكرى وكانوا دائمي الحنين إليها. انظر: Eliade, Religions au traliennes, p57.. فهنا نلتقي في التحليل مع ما وراء الخير والشر النتشويّة، حيثُ يجدر بالإنسان أن يتموقع خارجَ الأخلاق للحفاظ على البقاء.

قائمة المصادر والمراجع:

1. المصادر والمراجع العربيّة:

- **ابن القيّم** الجوزيّة، الكافية الشّافية في الانتصار للفرقة النّاجية (نونيّة ابن القيّم)، مطبعة ابن تيميّة، القاهرة، ط2، 1417هـ.

- **ابن تيميّة** أحمد تقيّ الدين، **المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، جمع وترتيب: محمّد بن عبد الرّحمن بن قاسم، ط1، 1418هـ.

- **ابن تيميّة** أحمد تقيّ الدين، **مجموع الفتاوى**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربيّة السعوديّة، 1995

- **ابن كثير الحافظ عماد الدّين**، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1969.

- **أبو بكر** ناجي، إدارة التوحّش، أخطر مرحلة ستمرّ بها الأمّة، مركز الدّراسات والبحوث الإسلاميَّة.

- **أبو زيد** نصر حامد، مفهوم النصّ، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، ط4، 1998.

- **الأشقر** جلبير، الشّعب يريد، بحث جذري في الانتفاضة العربيَّة، ترجمة: عمر الشّافعي بالتعاون مع الكاتب، دار الساقي، ط1، 2013.

- **إعلام الأنام بميلاد دولة الإسلام**، مؤسّسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، أشرف على إعداده: عثمان بن عبد الرحمن التميمي.

- **بشلار** غاستون، **النّار في التحليل النفسي**، تعريب نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، 1984.

- **البوعمراني** محمّد الصّالح، السيميائيّة العرفانيّة، الاستعاري والثقافيّ، مركز النّشر الجامعي، 2015.

- **الثعلبي** أبو إسحاق النيسابوري، قصص الأنبياء المسمّى عرائس المجالس، دار المعارف للطباعة والنّشر، سوسة، 1989.

- **جويرو** زهيّة، **الإفتاء بين سياج المذهب وإكراهات التّاريخ**، دراسة في فتاوى ابن رشد الجدّ، بيروت، دار الطليعة، 2014.

- **جويرو** زهيّة، الوأد الجديد مقالات في الفتوى وفقه النساء، دار مسكيلاني للنشر، ط1، 1914.

- **جيجاك** سلافوي، **سنة الأحلام الخطيرة**، تعريب أمير زكي، دار التنوير، 2013.

- **جيمس** بار، **خط في الرّمال، بريطانيا وفرنسا والصراع الذي شكّل الشّرق الأوسط**، دار الحكمة، لندن، 2015.

- **الحاجيّ** مراد، مواقف المفكّرين العرب من أطروحتي نهاية التّاريخ وحوار الحضارات، أطروحة مودعة بكليّة الآداب بمنوبة، نوقشت بتاريخ ماي 2017.

- **حرب** علي، الإنسان الأدنى، أمراض الدّين وأعطال الحداثة، المؤسَّسة العربيَّة للدراسات والنشر والتوزيع، 2005.

- **خضر** العادل، في الصورة والوجه والكلمة، مقالات ميدولوجيَّة، الدارالتونسيّة للكتاب، ط1، 2015.

- **الدّيري** علي أحمد، **نصوص متوحّشة، التكفير من أرثوذكسيّة السّلاجقة إلى سلفيّة ابن تيميّة**، مركز أوال للدراسات والتوثيق، ط1، بيروت، 2016.

- **الرّازي**، **مفاتيح الغيب**.

- **ستراوس** كلود ليفي، المحاورة التي أجراها ريمون بللور مع كلود ليفي ستراوس، نشرت في مجلّة بيت الحكمة، المغرب، العدد4، 1 يناير 1987.

- **السّعفي** وحيد، **في قراءة الخطاب الديني**، نجمة للدّراسات والنّشر والتوزيع، 2008.

- **الشّافعي**، الرّسالة، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط 1940.

- **فوكو** ميشيل، **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي**، تعريب: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2006.

- **قطب** سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، 2003، ط 32.

- **كريستوفر**.هـ. بايل، التّعذيب، التّهرب من المسؤوليّة، الحكومة السريّة وجرائم الحرب وحكم القانون، تعريب: محمّد جياد الأزرقي، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، ط1، 2012.

- **المقدسي** أبو محمّد عاصم، ملّة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين، وأساليب الطّغاة في تمييعها وصرف الطغاة عنها، نشر منبر التوحيد والجهاد.

- **المؤدّب** عبد الوهّاب، **أوهام الإسلام السياسي**، تعريب محمّد بنيس والمؤلف، دار تبقال للنشر، ط1، 2002.

- **المودودي** أبو الأعلى، الأسس الأخلاقيّة للحركة الإسلاميّة، مؤسّسة الرّسالة، 1980.

- **النيسابوري** مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1954.

- **اليعقوبي** محمّد أبو الهدى، إنقاذ الأمّة، فتوى مفصّلة في إثبات أنَّ داعش خوارج وأنَّ قتالهم واجب، 2015.

2. المراجع الأعجميّة:

Bunt, G.R, *Islam in the digital age*, London, 2003 sterling and Virginia: Pluto Press.

Eliade Mircea, *Histoire des croyances et des idées religieuses*, TI, Payot, 1976.

Eliade Mircea, le Mythe de l'eternel retour, Gallimard, 1969.

Freud, Totem et tabou, Interprétation par la psychanalyse de la vie sociale des peuples primitifs, Payot, 1932.

Girard René, *Des choses cachées depuis la fondation du monde*, Paris, Barnard Grasset, 1978.

Girard René, la violence et le sacré, Paris, Bernard Grasset, 1985.

Jean-Luc Nancy, *La communauté affrontée,* Galilée, Paris, 2001.

Nietzche, Par-delà le bien et le mal, Paris, Société de mercure de France, 8éd, 1910.

Ricour Paul, *Finitude et culpabilité,* Paris, Aubier, 1960.

Talmy (Leonard), Toward a Cognitive Semantics, Vol1, the MIT Press, 2000.

3. المصادر والمراجع الإلكترونيّة:

Henri Hubert et Marcel Mauss, Une édition électronique réalisée à partir du livre: Mélanges d'histoire des religions. De quelques résultats de la sociologie religieuse; Le sacrifice; L'origine

des pouvoirs magiques; La représentation du temps. «Essai sur la nature et la fonction du sacrifice.» (1899), (pages 1 à 130) Collection: Travaux de l'Année sociologique. Paris, Librairie Félix Alcan, 1929, 2e édition, 236 pages.Un article originalement publié dans la revue Année sociologique, tome II, 1899, pages 29 à 138.

http://classiques.uqac.ca/classiques/mauss_marcel/melanges_hist_religions/t2_sacrifice/sacrifice.htm,

http://sc.eldorar.com/science/article/13548

http://wp.me/p3Ooah-3J0

https://archive.org/stream/dbq_7/DABIQ7#page/n1/mode/1up

https://dawaalhaq.com/post/77153.

https://tlmith.blogspot.com/2016/03/blog-post_40.html

https://www.enabbaladi.net/archives/102960#ixzz4q9HBg54B

https://www.hrw.org/ar/world-report/2016/country-chapters/285669#64171b

The concept of Imamah (leadership): Imamah is From the Mellah of Ibrahim, Dabiq, n2.

https://archive.org/stream/dbq_7/DABIQ1#page/n9/mode/2up

https://arabic.cnn.com/middleeast/2015/02/04/ibn-taymiyah-islam-quran

في ما وراء البحث العلميّ

إهداء

أهدي مقالي هذا إلى أرواح ضحايا الهمجيّة والتوحّش وانتهاكات حرمة الإنسان في كلّ مكان من العالم، وخاصّة في العراق وسورية وليبيا، ولأرواح الضّحايا الذين تصدّوا لداعش حين حاولت اختراق حدود بلادنا بالجنوب في 7مارس 2016. وأؤكّد على أنَّ كلّ قتل لإنسان بيد إنسان مهما كانت التّبريرات هو جريمة في حقّ كلّ الإنسانيّة، وأنَّ الفرجة والصمت على سفك الدمّ مشاركة في الجريمة، فأيَّة حضارة هذه التي تزدهي بتقدمّها على رُكام المقابر الجماعيّة؟

إنَّه جدير بإنسانيّتنا احترام الحظر الأشدّ حرمة: لا تقتل!

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018